الباب الرابع

ماذا خسر العالم : مزايا ومباحث لها صلة بالموضوع

التمهيد

الفصل الأول : أوضاع العالم قبل البعثة النبوية

الفصل الثاني : أسباب نهضة و تخلف المسلمين عند الندوي وغيره من العلماء و المثقفين

التمهيد:

في هذا الباب فصلان: الفصل الأول يبحث في الأوضاع التي كانت سائدة قبل مجئ الإسلام، والتي ذكرها صاحب الكتاب في الباب الأول بشئ من الإسهاب، وذلك لأنه لا يمكن تفهم عطاء الإسلام وفضله من غير دراسة أوضاع ما قبله من سياسية ودينية واجتماعية.

والفصل الثاني يبحث في ما هي أسباب تأخر و تقدم المسلمين فإنه لما جاء الإسلام انقلبت الأحوال ظهرا لبطن و ثبت معجزة للناس أجمعين، فما هي القوة التي كانت عند المسلمين، والتي فتحوا بها العالم كله، ولكن ماذا وقع مع هؤلاء المسلمين إذ صاروا متخلفين، وجعلت كل أمة تهزمهم في كل مجال من مجالات الحياة، فالباحث يورد تلك الأسباب في ضوء مؤلفات الندوي و غيره من العلماء و المفكرين.

الفصل الأول

أوضاع العالم قبل البعثة النبوية

أمم آسيا الوسطى

لم يُعرَفْ عن هذه الأمم حضارةٌ تُذكَرُ، أو نظامٌ يُشَارُ إليه، وإنما كانت بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروةً علميةً، أو نظامـــاً سياسياً راقياً، منها:

الهند

يقول الرحالة الصيني "هوئن سوئنج"واصفاً الاحتفالَ العظيمَ الذي أقامه الملك "هرش"حاكم الهند من سنة ست وستمائة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة من الميلاد(٦٠٦م/٦٤٧م): أقام الملك احتفالاً عظيمًا في (قنوج)اشترك فيه عددٌ كبيرٌ جداً من علماء الديانات السائدة في الهند، وقد نصب الملك تمثالاً ذهبيًا لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً، وقد خرج بتمثال آخر أصغر لبوذا في موكب حافل قام بجنبه الملك "هرش" بمظلة، وقام الملك الحليف "كامروب" يذبُّ عنه الذباب. ويكفيك هذا الوصف لهذين الملكين، وهما يظلان إلههما من الشمس، ويدفعان عنه شَرَّ الذباب؛ لتعلم ما آلت إليه عقولُ هؤلاء القوم في دينهم. لقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي، حيث تعددت الآلهة من أشخاص تاريخية، وجبال، ومعادن، وأنهار، وآلات للحرب، وآلات للكتابة، وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية، وغير ذلك إلى أن بلغت ثلاثين وثلاثمائة مليون. واستعرت في أركان الهند وجنباتها الشهوةُ الجنسيةُ الجامحةُ حتى عبدَ الهنودُ آلةَ التناسلِ لإلههم الأكبر "مهاديو" فصوروها صورة بشعة، واجتمعوا للاحتفال بها رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً وأطفالاً!!، وعادت دور العبادة مكاناً يُمارس فيه الكهنة والفساق فجورَهم وخلاعتَهم، فضلاً عن سائر الأماكن في البلاد. ولم يُعرَفْ في تاريخ الأمم نظام طبقي أعتى وأقسى منه في الهند، وسن لذلك قانون يُدعى "منوشاستر"،قَسَّمَ النَّاسَ بمقتضاه إلى طبقات أربع، يتمتع أعلاها بكل المزايا، ولا يبقى

لأدناها إلا الذل والاستعباد، وتردت أوضاع المرأة في هذا المجتمع حتى إن الرجل كان يخسر زوجته في القمار، ولا يبقى للمرأة بعد وفاة زوجها إلا أن تصبح أمة في بيت زوجها المتوفى تخدمهم دون حق في متاع أو زواج أو تحرق نفسها خلفه هربـــاً من عبوسة الدنيا وذلِّ الحياة.

الصين

عجيب أمر ذلك الإنسان حين يفقد عقله، وتتقاذفه أمواجُ الأيام، حتى يجد نفسه على شاطئ فكرة يعتقدها، ويؤمن بها، ويخلص لها، دون أن يدري كيف وصل إليها، أو كيف وصلت إليه!! هكذا كان حال أهل الصين، حين تخبطوا بين ديانة " لاوتسو" المغرقة في النظريات، وديانة "كونفوشيوس" التي عُنيت بالعمليات، فكانت تعاليمَ تدار بها شئون الدنيا والأمور السياسية والمادية والإدارية، دون اعتقاد في وجود إله، ثم الديانة "البوذية"، والتي بدأت كحِكم بسيطة وبليغة، ثم ما لبثت أنْ شابتها الخرافة، وخالطتها الوثنية الحمقاء بتماثيلها، وضاعت بين أركانها فكرة الإله!! حتى إن مؤرخي هذه الديانة لا يزالون في شكٍّ من وجوده بها، وحيرة من قيام دين على أساس رقيق من الآداب، التي ليس فيها الإيمان بالله.

أوروبا

السائر في دروب تاريخ أوربا الشمالية الغربية، لا يعرف لقدميه موطئًا أو سبيلاً، ذلك لأنه يتجول في ديار خيَّمت عليها سحائبُ الظلام، واكتنفتها حروب ومعارك لا تُوصف إلا بالوحشية والضراوة. وبالاختصار، كانت أوربا في هذه الحقبة بمعزل عن الحضارة، لا تعرف عن العالم، ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلاً.

اليهود

بين آسيا وإفريقيا وأوروبا انتشر اليهود، وعلى ما كان في أيديهم من مادة في الدين، وقرب لفهم مصطلحاته ومعانيه، إلا أن ذلك لم يثمر حضارة تذكر، أو نظامًا يُشار إليه. قضى عليهم أن يتحكم فيهم غيرُهم، وأن يكونوا عُرْضةً للاضطهاد والنفي والبلاء، وفشت

بين أممهم أخلاقُ الخُنُوعِ عند الضَّعفِ، والبطش عند الغلبة، والقسوة والأثرة، وأكل المال بغير الحق، والجشع وتعاطي الربا، والنفاق، والصد عن سبيل الله.وبهذا الانحطاط النفسيِّ، والفساد الاجتماعيِّ، عُزِلُوا عن إمامةِ الأممِ، وقيادةِ العالمِ. ورغم أنَّ أقربَ ديانةٍ لهم في الأرض كانت المسيحية- فكلاهما من مشكاة واحدة خرجت- إلا أن العداء بين اليهود والنصارى لم يكن ليهدأ، إلا ليعاود الاستعار من جديد[١].

العداء بين اليهود والنصارى

الناظر في تاريخ العداء بين اليهود والنصارى، يجزم بلا ريبةٍ، ويقسم بلا شك، أن مثل هذه القسوة وتلك الضراوة في العداء والاعتداء لم تُعرَفْ أو تحدث على الأرض في مملكةٍ من ممالكِ الحيواناتِ، لقد كانوا يُوقعون ببعضهم البعض، ويتحينون الفُرص، ويهدمون في ساعةٍ ما وقع تحت أيديهم من معابد، ويقتلون ما وصلت إليه سيوفُهم من أرواحٍ، فكيف يكون لإحداهما إذن حَقٌّ في قيادةِ البشريةِ؛ لتحقيق رسالةِ الحقِّ والعدلِ والسَّلامِ؟.![٢]

في إفريقيا: الحبشة

كانت الحبشة على المذهب "المنوفيسى" المصري للنصرانية، والعجيبُ أنها على تنصرها كانت تعبد أوثاناً كثيرة، استعارت بعضها من الهمجية، فخلطت هذا بذاك.ولم تكن أمةٌ ذات روح في الدين، أو طموح في الدنيا، حتى إنه لم يكن لها استقلال بأمورها الدينية، إنما هي تابعة لكرسي الإسكندرية.

مصر

على عراقة حضارتها، وكثرة خيراتها، إلا أن مصر قد طُحِنت في عهد الرومان بين استبدادٍ سياسيٍّ، واستغلال اقتصاديٍّ، واضطهاد دينيٍّ. ففي مجال السياسة لم يكن لها من أمرِها شيءٌ، ومجال الاقتصاد لم تعرف عنها روما سوى أنها شاةٌ حلوبٌ تستنزفُ مواردَها، وتمتصُّ دَمَهَا، وكانت ضرائبُهم الباهظة على كُلِّ شيء، حتى على النُّفوسِ،

---

[١] اقرأ للتفصيل كتاب دريبر: History of the conflict Between Relegion and Science P:255 Chpter x,London 1890

[٢] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦٧-٦٨

وكان فَلَّاحُو مصر يكدحُون لرفاهيةِ وترف الحفـنةِ الباغيةِ في روما، والعجيبُ أنَّ الحرب الشرسة التي قامت بين المصريين والرُّومان، لم يكن القصد منها التحرر السياسي، أو البحث عن العدل الاقتصادي، إنما كانت نارًا تذكِّيها الخلافاتُ الدينيةُ، والمجادلات العقيمة. كان الناس لا يأبهون إلا بخلافِ العقيدةِ، يُخاطِرون في سبيلِها بحياتِهم، ويتعرَّضُون من أجلها في عشر سنين لما ذاقته أوروبا في عهد التفتيش لعقودٍ عديدةٍ، وقع خلال هذه الحرب ما تقشعر منه الجلودُ من تعذيبٍ وإغراقٍ، وإحراقٍ بالمشاعل، وتفنن في الإبادة والتعذيب، حتى إنهم كانوا يصفون المصريين في أكياس الرمل ثم يلقون بهم في اليم. وبالجملة لم تعرف مصرُ النصرانيةُ في عهد روما المسيحيةِ إلا أشدَّ الشَّقاء، وأقسى العذابِ[1].

(ظهرَ الفسادُ في البَرِّ والبَحرِ بِما كسَبَت أيدي النّاس ليُذيقُهم بَعضَ الّذي عمِلوا لعلّهم يرجِعون) (الروم/٤١)، (اعلَمُوا أنَّ اللهَ يُحيي الأرضَ بَعدَ مَوتِها قَد بينّا لَكُمُ الآياتِ لعلّكُم تَعقِلُونَ) (الحديد/ ١٧).

تحدّثنا هذه الآيات القرآنية عن الفساد الذي عم البلاد والعباد، قبل البعثة المحمدية، فقد حلّ الموت العقلي والأدبي والروحي بالجنس البشري، وأرخى الظلام سُدولَه في كل مكان، فسادت الفوضى في العقائد، وتاه الناس في بيداء الضلالة. وفقدت اليهوديّة والهندوسيّة والبوذيّة ما كان لها من تأثير في نفوس أتباعها، ودبّ دبيب الفساد في المسيحيّة خلال القرن السابع الميلادي، وأسرعت إليها الشيخوخة(١)، ومزقتها الخلافات والبدع الدينية كل مُمَزَّق، واستحال دين المسيح عليه السّلام إلى دين وثني، وتسربت الأفكار الوثنيّة إلى أذهان الجماهير. وأصبح النّاس يعبدون أرواح الموتى وآثارهم، ويتوجهون بالعبادة إلى التماثيل والصُّور. وكانت حال العالم الاجتماعية والأدبية مما يرثى له كذلك. ولم يقف أتباع هذه الديانات عند حد التّخلي عن الفضيلة فحسب، بل صاروا يعدون الرذيلة فضيلة. وارتكب الناس الموبقات لينالوا الأجر والثواب عند الرب بزعمهم، وتردت كل أمة في حَمأة الفساد الخلقي، وظهر الفساد في البر والبحر، والقارات والجزر.

---

[1] H. G . Wells, A Short History of The World p 170

وقد يدهش الكثيرون لهذا القول، ولكنه هو الحق. وحَسب القارىء أن يذكر أن هذا الوقت كان أحلك فترة في العصور الوسطى بأوروبة، وفي العصور المزدكية بفارس، والبورانية في الهند. وكانت الفاحشة ترتكب في أثناء أداء الشعائر الدينية، وهي جريمة تلي القتل في نتائجها، وكانوا يرتكبونها على اعتبار أنها فضيلة يُقرّها الدِّين وأما الاعتراف المعروف في المسيحية فكان ما يرتكب فيه من الآثام أكثر مما يتطهر منه[١].

وكانت حالة القسطنطينية في عهد جستنيان، المشرع المسيحي العظيم، خير شاهد على حالة الفساد والانحطاط اللّذين سادا المجتمع في أنحاء العالم المسيحي، فلم يكن للفضائل الخاصة والعامة أي وزن عند الناس. وتربعت عاهرة على عرش القياصرة، تتمتع بكل لما يتمتع به الإمبراطور من مظاهر الملك والعظمة، وزاولت تيودورا تجارتها علناً في مدينة قسطنطين، وأصبح اسمها مُضغةً في أفواه أهل الفسق والفجور من سكان المدينة، وصارت ملكةً يعبدها القاضي الوقور، والأسقُف الورع، والقائد الظافر، والملك الأسير، وكانت فظائعها وصمة عار في جبين الإمبراطورية، ولم يكن لها رادع من دين، أو وازع من ضمير، وقد شاعت في هذا العصر الفتن، والثورات، والاضطرابات الدموية؛ وكان للقسس فيها الحظ الأكبر، ولم يكن يُراعى فيها حرمة لقانون شرعي أو وضعي. وكانت جرائم القتل الفظيعة ترتكب داخل الكنائس والمذابح. ولم يسلم مكان ما من السلب والنهب.

أما بلاد فارس فقد شاعت فيها عبادة الفرج عدة قرون. وأول من دعا إليها أرتكز رسيس مِنيمون شقيق قُبرص؛ وقد بلغت تلك العبادة أشدها على عهد مَزدَك وكان يدين بمبدأ الشركة في النساء فيما يدين به من المبادىء الممقوتة، كما كان يقدِّس مناظر الفحش التي تقترن بالعربدة والسكر. وكانت هذه الشيوعية الفظيعة في النساء منتشرة أيضاً في الهند طبقاً لتعاليم شَكتكماك التي بلغت عنفوانها في الهند إذ ذاك. وكان من حق الكاهن الشكتماكي أن يطلب التمتع بزوجات غيره، فيطاع أمرُه بطيب خاطر. وكان العروس تقضي الأسبوع الأول في صحبة كبار الكهنة، ويرون ذلك فضيلة تجلب رضا الرب

---

[١] Robert Briiffault , The Making of Humanity, .p 164

فيبارك في حياتهم الزوجية. وكانت ليلة الاحتفال بالعيد الهندوكي المسمى بالشِّفرارتي مظهراً لأفحش ضروب البهيمية فكانوا لا يتورعون عن الزنا بالمحارم تحت تأثير الخمر والنساء، كما كانت الأناشيد المقدسة التي يترنمون بها في تلك المناسبة تشيد بهذه المنكرات والخبائث. ولما كانت الفضائل في نظر الناس صورة منعكسة من صفات الإله الذي يؤمنون به – وهذا صحيح لأن الإله في كل زمان ومكان يجمع في ذاته كافة الصفات التي يراها الناس فضائل وكمالات – أمكننا أن ندرك مدى الهوة السحيقة التي تدهورت إليها الأخلاق عند الهنود، لأن حياة آلهتهم كانت طافحة بألوان الفساد الخلقي.

ولكن بلاد العرب كانت أشد البقاع ظلاماً في أحلك عصر في تاريخ العالم، فقد فشا فيهم شرب الخمر، وانتهاك العرض، ولعب الميسر، وكان سفك الدماء، ووأد البنات، ونهب الأموال، من دواعي الفخر عندهم. ولم يكن لهم وازع خلقي أو ديني أو اجتماعي يكبح جماحهم. ولكن يكن للزواج حدود، ولا للطلاق قيود. وإلى جانب الفوضى العامة في العلاقات الجنسية، كانوا يتهالكون على الزنا بالمحارم. وكان الأبناء يَنكِحون ما نكح آباؤهم من النساء. وكان المحصنات من النساء لا يرين عارا في أن يغازلن غير أزواجهن، بل كن يفخرن في حياة الخليل، بعدد ما لهن من خليل. وكانوا يئدون البنات أحياء. وكانت المنازعات الدموية شائعة بينهم، وكثيراً ما كانوا يقتلون الرجل لأن بدرت منه كلمة طائشة. وكانت روح السلب والنهب والقتل والانتقام من القوة بحيث إن النساء لم يكن يهدأ لهن بال حتى يصبغن ملابسهن بدم أعدائهن، ويأكلن قلوبهم، وإني لا أتصور رذيلة لم يتصف بها العرب في أسوأ صورها في ذلك الوقت. ويقول جيبون عن العرب في تلك الأيام: "لم يكن الإنسان يفترق كثيراً عن الحيوان في ذلك المجتمع الذي لايستحق هذا الاسم، فقد كان أشبه بحال الإنسان البدائي في الانحطاط، فلم يكن يعرف القوانين، ولم يمارس الصناعات، وكانت مداركه العقلية ضعيفة، ولا يكاد يبين".

صحيح أنه لم تخل حقبة من الزمان من الشرور والآثام، ولكن أسوأ ما كان يمتاز به هذا العصر هو أن البشرية بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ولئن كان العالم في حاجة قط إلى نبي، لقد كان أحوجَ ما يكون إليه في ذلك الوقت، وقد جرت سنة الله في

خلقه أن يرسل النُور عقب الظلام، وأن يرسل الغيث عقب الجفاف، كذلك الأنبياء تظهر عقب فترة من فترات الانحطاط البشري، ولكن الفترة التي سبقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم امتازت بأن العالم جميعه قد غَشِيته سحابة كثيفة من الكفر والجهل والفجور، واحتجبت فيه شمس الفضيلة، وانقلبت الأوضاع، فصار القبيح حسناً، والحسن قبيحاً[1].

ولقد بعث الله تعالى من قبل كثيراً من الأنبياء والرسل، ولكن الوقت الذي بعثوا فيه لم يكن مكفهرا كالوقت الذي بُعث فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم تكن مهمة من تقدمه من الأنبياء شاقة، كما كانت مهمته صلى الله عليه وسلم. فقد جاء موسى عليه السلام ليحرر بني إسرائيل من ربقَة فرعون، ويأخذهم إلى أرض الميعاد. وكان المصريون في ذلك العصر أهل ثقافة وحضارة، لهم باع طويل في الفنون والعلوم، ولهم قوانين خلقية. وكان عندهم طائفة تسمى السحرة، يقرأون أسرار الكون، ويمارسون التنويم المغناطيسي. وكذلك ظهر عيسى عليه السلام وسط الثقافة والحضارة الرومانية، ورأى حوله ثقافة تكاد تضارع ثقافة العصر الحاضر، وكان الرومان يعبدون الأوثان، ولكن قوم عيسى عليه السّلام كانوا يعرفون التوحيد وكان التمسك بالرسوم، والوقوف عند صور العبادات، والرياء، والانغماس في الشّهوات، هي الآفاق المنتشرة في عصره. ولكن دين الله وأحكامه كان معروفاً لقومه. وما كان مجيىء عيسى عليه السّلام إلا (ليكمل النّاموس والأنبياء نصاً وروحاً)، [لا تَظُنُوا أني جئتُ لأنقضَ النّاموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقضَ بل لأكمل]، (متى ١٧/٥). وإذا كانت تلك الحالة اقتضت إرسال موسى وعيسى عليهما السّلام، فإن الحالة في القرن السادس الميلادي كانت تقتضي إما ظهور نبي في كل قطر، وإما ظهور نبي عظيم يُعيد الدِّين سيرته الأولى في كل مكان،لأن النّاس خالفوا الشّرع، وتعدوا حدود الله في كل مكان. ولم تشاهد الأرض قط عصراً أشد ظلاماً من ذلك العصر. ولكن العرب كانوا أسوأ الناس حالاً يرتكبون أحطّ أنواع الآثام، يجاهرون بها ولا يستخفون، وكانوا أجهل أهل الأرض. هذا على الرغم من أن الله تعالى حباهم بالعبقرية الشعرية النادرة، ولكنهم كانوا ينظمون القريض ليعدّدوا فيه مساوئهم. وإذا كان الأفق

---

[1] ماذا خسر العالم ، ص ٧٢-٧٧

الأخلاقي في العالم مكفهراً في ذلك الوقت، فإن الجانب الروحي والديني لم يكن أقل ظلاماً. وكلامي هنا ينصب على المسيحية وحدها، فعيسى عليه السّلام لم يأت بشريعة جديدة، ولم يأت بدين جديد؛ ولكنه جاء ليصلح شريعة موسى عليه السّلام، ولكن لم يمضِ على وفاته قرن أو قرنان من الزمان حتى قيل فيه ما قد قيل في غيره. وصار أشبه شيء بمعبد يحتفظ بكافة مظاهر الديانات القديمة، ودخلت في دينه الطاهر البسيط كافة العقائد الوثنيّة التي كانت منتشرة في الهند واليونان وفارس ورومية قبل مولده بآلاف السنين. فدنسوا اسمه الكريم بأشياء هو منها بريء، وجعلوه بمثابة إله من آلهة الوثنيين، وأنزلوه منزلة إله الشمس، وهو إله وثني معروف في العالم القديم وأدخلوا في دينه كافة الرُّسوم الخاصة بالعبادات الوثنية، مع أن دينه لم يكن يختلف عن الإسلام في شيء.

جاءت المسيحيّة للقضاء على الوثنيّة، فإذا بها تصبح فريسة لها لا حول لها ولا قوة، ولم يكن للفلسفة الزائفة أسوأ الأثر في العالم المسيحي فحسب، إذ أحالت الدين المسيحي إلى دين وثني، بل إن هذه الفلسفة المزعومة التي ظهرت من جديد باسم الأسبينوزية تعدى أثرها إلى الديانات القديمة في الشرق، فانتشرت عبادة الأوثان بين الأجناس السامية في آسيا الوسطى والشرقية، ولذلك كان العالم المعروف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ما بين هذه الأجناس السامية والعالم المسيحي، مضافاً إليه القبائل الشمالية في أوروبة عبارة عن مرتع واسع لعبادة الأوثان الممقوتة. وقد تبين لنا أخيراً أن الأجزاء المجهولة من العالم كانت تدين أيضاً بعبادة الأوثان حتى إن بعض القبائل اليهودية لم تسلم من هذه العدوى، فاشتركت في عبادة الأوثان، وتقديم القرابين للأصنام المنصوبة على الكعبة.

وعَبثت يد التّغيير والتّبديل بجميع الكتب السّماوية التي أُنزلت من حين إلى حين في جميع الأُمم والأقطار لهداية الناس، وأسدلت المذاهبُ الوضعيةُ حجاب الإبهام على الكتب السماوية، وامتدت يد التحريف إلى الكتب المقدسة عند بني إسرائيل، والفرس، والهندوس، والصينيين، والبوذيين. ولم يَنجُ الكتاب المقدس من هذا المصير، حتى لا يؤمن اليوم بصحته إلا قليلٌ. ومن المسلم به أنه دَخَلَه كثير من الأقاصيص التي تتناقلها الأفواه.

ويعترف كثير من رجال الكنيسة الإنجليزية أنه لا يسعهم الإيمان الصادق بكل ما ورد في الكتاب المقدس، سواء منه العهد القديم أو الجديد، كما لا يسعهم أن يحلفوا اليمين بأنه صحيح لأنهم لا يؤمنون بصحة الكثير مما ورد فيه من العقائد والأساطير.

وإذا كانت تلك حال الكتب المقدسة في القرن السادس الميلادي، وحارت الأفهام في إدراك مراد الحق، كان من الصعب أن نتصور أن الله تعالى يترك الناس وشأنهم، بل كان من المؤكد أن يرسل رسولاً من لدنه، فيوحي بإذنه ما يشاء، ويعيد الدين إلى ما كان عليه من جمال وصفاء. ويشير القرآن الكريم في هذه الآية إلى ضرورة الوحي: (كانَ الناسُ أُمةً واحدة فَبَعَثَ الله النَبيين مُبَشّرينَ ومُنذرينَ وأنزلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحقّ ليحكُمَ بينَ الناسِ فيما اختلفُوا فيه وما اختلفَ فيه إلاّ الذينَ أُوتوه مِن بَعدِ ما جاءَتهُمُ البياتُ بَغياً بينهم فهدى اللهُ الّذينَ آمنوا لما اختلفوا فيه مِنَ الحقّ بإذنِهِ واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ) (البقرة/ ٢١٣).

المنطق واضح في هذه الآية، فهي تحدثنا عن عناية الله تعالى بخلقه، وتعريفهم به، وأنه أنزل الكتب السماوية إلى مختلف الأمم، ولكنهم عَصَوا أمر ربهم، فبعث الله النبيين في كل أمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن كل أمة تنكّبت عن الجادّة المستقيمة، واحتدم بينهم الخلاف على أصول الدين ولكن الخلاف بلغ أشده في المسيحية، فكان لابد من أحد أمرين: إما أن يُبعثَ نبيٌ في كلِّ أمة ليحسم مادة الخلاف فيها، أو يُبعث نبيٌ واحد ليفصل في الخلاف الذي دب في الأُمم جميعاً.

ويلخص القرآن الكريم الموقف كله فيما يلي من الآيات، وهو كتاب الله الأخير الذي أنزل ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه: (تالله لَقَد أرسلنا إلى أُممٍ من قَبلكَ فَزَيّنَ لهُمُ الشّيطان أعمالَهُم فَهوَ وليُّهُمُ اليومَ ولهم عذابٌ أليم، وما أنزلنا عليك الكتابَ إلاّ لتُبينَ لَهُمُ الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون) (سورة النّحل: ٦٣و٦٤) هذه الآيات أبلغ من أن تحتاج إلى أي تفسير على ضوء الحوادث التي ذكرناها آنفاً. فهي تتحدث عن أمرين (الأول): أن الشيطان زين للناس أعمالهم، و(الثاني): أن الدِّين الذي جاءت به الرسل قد تشعبت به أودية الخلاف. وإذا عرفنا أن الناس صاروا يرون أقبح ما يأتونه

حسناً، علمنا أن الشيطان زين لهم أعمالهم حتى لقد كان المسيحيون يتواصون بهذا القول "فلنفعل الشرّ كي يأتي الخير". وإذا استثنينا الإسلام لم نجد ديناً يخلو حتى في عصرنا الحاضر من المذاهب الأصليّة والفرعية التي نبتت من وقت لآخر وفقاً لأهواء أهل الغرور. وفي وسع المسيحية أن تفخر – مع التواضع – بأن لها الحظ الأوفر من أمثال هذه المذاهب!! ففيها ما ينيف على الأربعمائة مذهب! وأدهى من ذلك وأمر أنّ الخلافات المذهبية السّائدة في جميع هذه الأديان تمس الأصول والعقائد، على عكس الحال في الإسلام حيث لا تختلف المذاهب الثلاثة أو الأربعة المعروفة في أي أصل من أصول الدين. ويجب ألا يَعزب عن البال أن الخلافات الداخلية في الأديان الأخرى ليست حديثة العهد، إذ أنها وُجدت بشكل محسوس قبل نزول القرآن مباشرة. وقد ظل كثير من الأديان سليماً بعد ظهورها بمدة طويلة إلا المسيحية، فلم يكد يمضي على وفاة صاحبها عليه السلام قرن ونصف قرن من الزمان، حتى أصبحت خليطاً من العقائد المتناقضة. ومعلوم أن الحق واحد لا يتعدد، ولكنه عند المسيحيين لا يُحصى له عدد! فهل ترى أن الله تعالى يَذرُ النّاس على ما هم عليه، ويرضى عن هذه الفوضى؟ لقد جرت سنة الله في خلقه أن يخلق من الفوضى نظاماً في عالم الأشباح، فهل يكون الأمر بخلاف ذلك في عالم الأرواح؟ قال إنج، عميد كلية القديس بولس، مخاطباً شعبة اتحاد رجال الكنيسة في أكسفورد: "يود كثير من رجال الكنيسة لو أن حركة الحرية الفكرية وقفت خارج الباب (باب الكنيسة)! ولكن انظروا ماذا تكون النتيجة لو أن صوت الفكر الحر اختنق داخل الكنيسة الانجليزية! إذاً لكانت الكنيسة تعتقد الآن أن الشمس تدور حول الأرض، وأن الجنّة في مكان يمكن الوصولُ إليه في طيارة إذا عُرِف الطريق، وأن جهنم تحت أقدامنا، وأن ثوران البراكين – كما كان يزعم رجال الدين في العصور الوسطى – ناشىءٌ من زيادة سكان الجحيم. كل هذه أمور لم يؤمن بها رجل متعلم، ولم يسعه الإيمان بها. ولو أن الكنيسة ظلت متمسكة بهذه العقائد لما بقي فيها مكان إلا للحمقى والدجاجلة. ويرى رجالُ الكنيسة العصريون أن الواجب يحتم على الكنيسة أن تواجه المشاكل، وتلتمس الحلول لها عن طريق البحث المنزة من كل قيد. وهم لا يرون أن الاستناد إلى أقوال الغير، أو إلى

التقاليد الموروثة قد أدى إلى حل مشكلة من المشاكل، كما أنهم لا يرون أن الناس مكلّفون بتصديق المبادىء التي وضعت في القرون الأولى، ولكنهم يرون وجوب مراعاة التطورات الحديثة في الفلسفة، والتّاريخ، والنّقد، وبخاصة العلوم الطّبيعيّة. وقد كشفت البحوث العلمية الحديثة في الديانات القديمة عن أشياء تسترعي انتباه المفكرين من أهل العصر، ولا يرون معها مناصاً من أن يرفضوا "العقائد التي أضفى عليها الزمن ثوب الاحترام، والآراء الدينية التي تلقاها النّاس بالقبول". ولكن هذه "العقائد التي أضفى عليها الزمن ثوب الاحترام، والآراء الدينية التي تلقاها الناس بالقبول" كانت موجودة فعلاً في القرن السادس الميلادي، وهذه الآراء السخيفة عن الجنة والنار كانت سائدة وقتئذ في العالم المسيحي. وإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء برسالة من عند الله، فهل يرضى الله تعالى أن تظل الكنيسة المسيحية مقفرة إلا من "الحمقى والدّجاجلة" زهاء ثمانية عشر قرناً، حتى يأتي حضرة العميد العالم وزملاؤه، فيصلحوا ما فسد بمبادئهم العصرية؟ إن هذا يذكرني بأنه من المناسب في هذا المقام أن أذكر كلمة عن مداولات المجَدّدين من رجال الدين المسيحي[١].

لقد ظلّ كبار رجال الكنيسة يجتمعون كل عام تقريباً منذ سنة ١٩١٥ لإصلاح معتقداتهم الدينية. وقد قرروا ما يأتي:

١. أن عيسى ليس إلاّ بشراً، كما أنه ليس هو الله بأي معنى من معاني الكلمة.
٢. وأن بنوته لله معناها قربه من الله فقط – وهي مرحلة من الرقي الروحي مفتوحة لكل بني آدم: وأن نظرية "الحبل بلا دنس" ابتدعت لمجرد تعزيز الاعتقاد في ألوهيته.
٣. وأن الاعتقاد في زلة آدم اعتقاد خطأ، لأن الإنسان يبرز إلى الوجود من غير أن تكون الخطيئة مركوزة في فطرته، إذاً الخطيئة أمر كسبي. وفي وسع الإنسان أن يتخلص منها بمجهوده الخاص، وليس في وسع أحد أن يكفّر عن خطايا غيره.

---

[١] اقرأ للتفصيل كتاب دريبر: History of the conflict Between Relegion and Science P:255 Chpter x,London 1890

٤. وأن معظم الشعائر الدينية المسيحية قد اقتُبست من الوثنية، ومنها العشاء الرباني الذي تسرَّب إليها من الشعائر المعروفة عند عباد الشمس.
٥. وأن عيسى كان يشارك معاصريه في أخطائهم.
٦. وأن الكنيسة المسماة باسمه لم يؤسسها هو.
٧. وأن الكتاب المقدس ليس كلام الله صِرفاً، ولكنه مشوب بالأقاصيص التي كانت تجري على ألسنة الناس، كما أن كثيراً من الحوادث الواردة فيه لا يقبلها العقل.
٨. وأن عيسى لم يمت على الصليب بل أغمي عليه، وأن بعثه كان بالروح لا بالجسم.

إذا استثنينا ما أدت إليه حركة الإصلاح الديني من نبذ العقائد السخيفة التي سادت في القرون الوسطى، ومن اعتبار بعض عقائد الكنيسة الرومانية من آثار الوثنية، بدا لنا أن هذه الحركة لم يؤد إلى إصلاح الحال إذا نظرنا إلى التركة الثقيلة التي خلّفها للمجددين. ومهما يكن من أمر فقد ثبت أن حركة الإصلاح الديني كانت حركة سياسية لتحرير الدولة من سلطان الكنيسة؛ ولعلها كانت تهدف إلى نقض قرارات مجمع نيقية جعل الدولة تابعة للكنيسة. ومعلوم أن الهيئات البروتستانتية ولاسيما الكنيسة الإنجليزية، تكاد تتفق مع الكنيسة الرومانية في نفس العقائد فيما عدا عصمة البابا، وبضع أمور أُخرى، ولكن المجددين أتوا على بنيان المسيحية من القواعد، ليعيدوا دين المسيح سيرته الأولى خالصاً من الشوائب، على أن المهمة التي تصدى المجددون للقيام بها، قد سبق إليها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ولم أرَ في مداولاتهم شيئاً ذا أهمية إلا وقد نصّ عليه القرآن الكريم، وعالجه بطريقة أكثر وضوحاً ودقة، وأكثر تمشياً مع المنطق والحقائق.

ولما كانت سنة الله جرت بأن يخاطب عباده من حين إلى حين على لسان رسول من البشر، يرسله بالهدى ودين الحق – وليس في وسعهم أن ينكروا هذه السُّنة الإلهية وإلاّ انهار صرحُ المسيحية من أساسه – لم يكن المعقول أن ينتدب لهذا العمل الإلهي مجامعُ ومؤتمرات من بني الإنسان، إذ القوانين والسنن الإلهية ثابتة لا تتغير، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. وقد أشارت كافة الديانات القديمة في العالم إلى هذه السُّنّة الإلهية – وهي اصطفاء

الله تعالى لرسول واحد في كل عصر ليُبلغ رسالته للناس، فإذا تطرّق الفساد إلى هذه الرسالة، وعبثت بها أيدي النّاس بعث الله رسولاً جديداً ليطهّر الدّين مما عَلِقَ به من الشوائب والأكدار وقد أرسل الله عيسى عليه السلام لأداء هذه المهمة نفسها، مبشراً بنبي يأتي من بعده بالهدى ودين الحق.

ولكن قومه لم يعبؤوا بقولهن وزعموا – متأثرين بالوثنية – أنه جاء ليكفّر عن خطايا البشر بدمه، فنسخوا بذلك الحكم الإلهي الثابت من قديم – وهو أن النجاة منوطة بطاعة الله تعالى، وامتثال أوامره. ثم إنهم غيروا في سُنة الوحي الإلهي – ولعل ذلك بتأثير الوثنية أيضاً – فزعموا أن الله تعالى لا يصطفي رجلاً واحداً ليكون رسولاً للناس، ولكنه يوحي إلى المجامع والمجالس المؤلفة من القساوسة والأحبار، ولكن الدين الذي يصنعه البشر، لا يمكن أن يرضي العقل، إذا كان هذا العقل قد شبّ عن الطّوق، على أن الاضطراب الفكري في العقائد الدينية الذي يعانيه الغرب اليوم ليس شيئاً جديداً، فمنذ ظهور الكنيسة ظل هذا الاضطراب ينتاب العالم المسيحي كل ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أليست هذه المحاولات المتكررة لتجديد الدين المسيحي دليلاً على أن هذا الدّين من صُنع البشر؟ إذ لو كان من عند الله، لوجب أن يظل على حاله في جميع مراحل نمو العقل الإنساني، وأن يكون وافياً – في الوقت نفسه – بكل ما عسى أن يَجِدَّ من المطالب والحاجات على مرور الزمن، أليست الطبيعة كلُّها تشهد بهذه الحقيقة؟ إنه ما من شيء في الكون إلاّ وقد خُلق من خُلق العالم. ومع ذلك يبدو اليوم جديداً كما بالأمس، دون أن يُقَلِّل الزمن من قدرته على الوفاء بحاجة البشر، على الرغم من خضوعه لسنة التطور المطرد. وإن الإنسان ليستطيع أن يكتشف في نُسخة الكون الأصلية كلّ ما يفي بمطالبه سواء في الحال أو في المال. ولذلك يطلق القرآن الكريم على الله تعالى اسم الرحمن، ومعناه المنعم الذي خلق الأشياء لسد حاجة البشر قبل ظهور هذه الحاجة بزمن طويل. ولا ريب أن عناية الله تعالى الذي وسع كل شيءٍ علماً سابقةٌ على ظهور الحاجة. وهكذا الشأن في الدين، إذا كان من عند الله كان شاملاً جامعاً بحيث يساير تطور العقل، ومما لاشك فيه أن المسيحية لا يمكن أن تثبت أمام هذا المحك. أما المسلمون فيرون أن الدين الذي ليست

لديه المناعة القوية لمواجهة أحداث الزمن لا يعد جديراً بهذا الاسم. ولم يشعر المسلمون قط بالحاجة إلى تغيير عقائدهم الدينية مهما سمت ثقافتهم، وارتقت أفكارهم. ومن مفاخر الإسلام أنه أسدى إلى العلم والثقافة من الأيادي البيضاء ما يفوق ما أسدته المسيحية بكثير، وأنه كان يشجع دائماً حرية التعليم، ومع ذلك كان أغزر المسلمين علماً أسبق الناس إلى تأييده. وقد أثارت هذه الظاهرة دهشة إحدى الصحف الإنجليزية في الهند فلم تجد مندوحة عن الاعتراف بأنّ الحرية العلمية في الغرب أدت إلى إفلاس العقيدة الدينية، وإثارة الشكوك، ونشر المذهب المادي، على حين أنها أدت في الإسلام إلى زيادة تمسك المسلمين بدينهم[١].

على أن هناك جانباً آخر لهذه القضية. يجدر بالمفكرين العصريين، والمشتغلين بعلم اللاّهوت من رجال الكنيسة، أن يفكروا فيه، وهو أن الصراع الفكري الذي تدور رحاه الآن في الغرب، يُثبت على الأقل أن الدّين الذي جاء به عيسى عليه السلام لم يصل إلينا بحذافيره، وعلى وجهه الصحيح. فمن المسلم به أن تعاليم المسيح عليه السلام دخلها التحريف منذ البداية، كما أن جميع الجهود التي بُذلت فيما بعد لتطهيرها من الدخيل، وإعادتها إلى صفائها الأصلي لم تكن تلقى أي تأييد من الأجيال التالية. ولئن أصابت هذه الجهود نجاحاً، لقد كان نجاحاً ظاهراً سريع الزّوال.

إنّك لن تستطيع أن تعيد بناء بيت تهدم من المواد البالية. إنّك لن تستطيع أن تعيد بناء بيت تهدم على أية صورة تقارب صورته الأولى من الأنقاض والأخشاب النّخرة، وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تبني بيتاً على صورته، ولكنه يكون بيتاً هزيلاً يثير الضّحك والسُّخرية، لا تطيق أن تنظر إليه، ولا أن تسكن فيه.

إذا كان هذا هو مصير الجهود الذي يبذلها الإنسان ليعيد ما بناه بيده بعد أن صار خراباً، فما بال الشيء الذي هو من صُنع الله؟

إن الفواكه التي تنبت من الأرض، ثم تنضج في فصل الصيف، ثم تذبل وتبلى، فلا يبقى منها إلا العفن والعَطَن، هل يستطيع الإنسان أن يعيدها سيرتها الأولى حلاوةً

---

[١] تاريخ الحضارات العام، فريدم داغر، بيروت، المجلد الثالث، ص ١٣٣-١٥٥

وطلاوةً؟ لا ريب أن العناصر والذرات الجوهرية التي تدخل في تركيب الفاكهة، هي من صنع الله – وهي باقية لا تنقص، ولا تفنى. وهذه العناصر توجد، بل وجدت منذ أن وجد الزمن، في الفضاء المحيط، الذي هو كتلة هائلة مضطربة غير متجانسة، لا يعلم سرّ تركيبها إلا الله وحده. وحينما تبلى الفاكهة وتتعفن وتتلاشى، تعود الذرات الجوهرية التي تدخل في تركيبها إلى الكتلة التي جاءت منها، فتمتصها مرة أخرى. ثم يُخرجها الله تعالى تارة أخرى في الوقت المعلوم لتكون برعما من براعم الربيع، ثم فاكهة من فواكه الصيف. فالله تعالى هو الذي ينشئها من جديد، ويعيدها سيرتها الأولى، حين تدعو الحاجة إليها، ولابدّ للإنسان في ذلك.

إذا كان هذا هو الحال في أفعال الله تعالى، فهل يكون الحال بخلاف ذلك في كلامه؟ إن القرآن الكريم – وهو آخر الكتب السّماوية – يشير إلى هذه الظاهرة الطبيعية نفسها في معرض بيانه للضرورة التي اقتضت نزوله، ألا وهي وقوع التّحريف في الكتب السماوية السابقة. يقول تعالى: (تالله لَقَد أرسلنا إلى أُممٍ من قبلكَ فَزَيّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهم فهو وليُّهُمُ اليومَ ولَهم عذابٌ أليمٌ، وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلاّ لِتُبينَ لَهُمُ الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون) (النحل/٦٣_٦٤). (وَمِنَ ثمراتِ النّخيلِ والأعنابِ تَتّخذون مِنهُ سكراً ورزقاً حَسَناً إنّ في ذلك لآية لقومٍ يعقلونَ)، (النحل/ ٦٧).

إذا استحال البيت إلى أنقاض، استحال على الإنسان أن يعيده كما كانت من هذه الأنقاض. وإذا بليت الفاكهة، واستحالت إلى عفونات، استحال على الإنسان أن يعيدها من هذه العفونات. وكذلك إذا دَرَست الكتبُ السَماوية، وعبث بها النّاس إما بالخطأ، أو الضياع، أو الإنكار، أو الزيادة، أو الكتمان، أو التحريف، بحيث مُسخت صورتها وبَطلت فائدتها، استحال على الإنسان أن يُعيدها سيرتها الأولى من الحُطام الذي بَقيَ منها.

كان يوجد في بلاد العرب – قبل البعثة النبوية – جميع المعتقدات والمذاهب. فكان فيها اليهودية والمجوسية وجميع مذاهب المسيحية، ومذهب عبادة الشمس، والاعتقاد في تقمص الأرواح، ومختلف المذاهب والعبادات. ولكل منها أتباع. ولكن جزيرة العرب ظلت في صميمها بعيدة عن المؤثرات الخارجية، واتبع العرب دينهم الخاص الحافل

بالخرافات، ولم يقتصروا على عبادة الشمس والقمر والنجوم، بل عبدوا كل ما هب ودب من الأصنام، وأصبحت الكعبة وهي أول بيت وضع للناس، حين ذهب إبراهيم ليعبد الله وحده، محلا لعبادة ٣٦٠ إلهاً، لكل يوم إله. وكان هُبَل واللات والعُزّى رؤساء هذه الآلهة. وكان العرب يصنعون الآلهة على صورة الإنسان، وعُقاب الجو، والأسد، وما شاكل ذلك. ويجرون أولادهم ليذبحوهم عند مذابح هذه الآلهة، فضلاً عن القرابين الأُخرى. افترى أنّ الله تعالى يترك بلاد العرب وغيرها من بلاد العالم على هذه الحال الفظيعة، في وقت خلت فيه المسيحية واليهودية وغيرهما من عقيدة التوحيد، ولم تصبح مصدراً للهدى والنور؟[1]

دعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد الخالص، وأقام دعائمه على أساس متين لا يتزعزع. ولما كان الغرض من الدين هو تعريف الخلق بالحق، فهل يستطيع التاريخ أن يحدثنا عن شخص آخر غير النبي صلى الله عليه وسلم خدم القضية الدينية أكثر منه؟

إن عهد الشرك آخذ الآن في الزوال، على حين أن نجم التوحيد آخذ في الصعود. ويحاول القائلون بالتثليث أنفسهم، وَعَبَدة الحجارة في الهند كذلك، أن يبرروا عقائدهم الدينية وأساليب عباداتهم، وأن يُثبتوا أن عقائدهم لا تخالف وحدانية الله. والفضل في ذلك كله لما انتشر من مفهوم الدين بعد الاحتكاك بالإسلام ولما جاء به الإسلام لمحمد صلى الله عليه وسلم.

لقد جرت سنة الله تعالى أن يخاطب عباده على لسان الأنبياء ليعرفهم شريعته فإذا بدل الناس وغيروا فيها، خاطبهم الله تعالى من جديد، وبعث فيهم رسولاً منهم برسالاته وكلامه، فإذا تقرر ذلك، فقد ثبت أن الكتب المنزلة قد بُدّلت وغُيّرت قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وما فتئت على هذه الحال الآن. ولم يظهر للآن من يرد هذه الكتب إلى صورتها الأولى سوى محمد صلى الله عليه وسلم. وإزاء تلك الحال لا مفر لغير المسلمين من أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله ليطهر

---

[1] السيرة النبوية، للندوي ص٢٧

الدين من الفساد، وإما أن الكتب التي ظهرت قبل القرآن ليست من عند الله، إذ لو كانت من عنده حقاً لحفظها من العبث. وفي هذا الصدد يخاطب الله تعالى الفطرة، ويبين للناس هذه الحقيقة في هذه الآية:

(ما نَنسخ مِن آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثلها). (البقرة/ ١٠٦)، فما من شيء يزول أو يصبح غير صالح، إلا وأبدله الله تعالى بشيء جديد. هذا القانون – قانون العرض والطلب – قانون نافذ في العالم المادي كلّه، ولابد أن يكون سارياً كذلك في العالم الرُّوحي. وكلام الله تعالى هو قوام النّفس وغذاء الروح فإذا دَرَست آثاره، وتغيرت معالمه، فلا بد أن يعود نقياً كما كان، ولقد عاد فعلا في صورة القرآن[١].

مَن يستنطق سجل التاريخ ويقرأ صفحاته وآثاره قراءة تحليلية واعية، ويستقرئ آيات القرآن الكريم، ويتعمق في فهم وتفسير ومعرفة طبيعة المجتمع وتكوينه النفسي والاقتصادي والثقافي والعقائدي والاجتماعي، من خلال أسباب نزول الآيات التي تحدثت عن أوضاع العرب وطبيعة أصحاب الديانات السماوية والوثنية، وما وصلت إليه من تردّ وسقوط، مَن يستقرئ كل تلك المصادر ويستنطقها يكتشف الصورة المأساوية والأوضاع المتخلفة التي كان يعيشها العرب في الجزيرة، والعالم الجاهلي المتحضر نسبياً من حولهم آنذاك، لقد كانت تلك المنطقة من العالم، بما فيها مكة التي تعتبر مركزاً مهماً من مراكز العرب التجارية والسياسية والدينية، تعيش حالة من التخلف والانحطاط بكل معانيه.

فلقد كان الجهل والأمية والخرافة تسيطر على الجزيرة العربية وتعبث بالعقول والمعتقدات، فلم يكن في مكة مَن يعرف القراءة والكتابة غير عدد قليل يعدّ على الأصابع كما يذكر المؤرخون ذلك.

كما لم يكن العرب أهل كتاب ولا ديانة سماوية ترفع من مستواهم الفكري، أو تنظم حياتهم الاجتماعية، وتعمق وعيهم الحضاري.

بل كانوا أعراباً جاهليين يعبدون الأصنام والأوثان والجن والنجوم والملائكة، وقليل منهم كانوا على دين إبراهيم أو المسيح عليهما السلام، ومن الجدير بالذكر هنا أن

---

[١] موير، المصدر : المثل الاعلى في الانبياء.

مكة كانت بلد التوحيد، ومنطلق الإيمان أيام إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام، اللذان بعثا قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف سنة تقريباً.

فقد دعا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بدعوة الإصلاح والتوحيد، وأسّسا البيت الحرام، وجعلاه بيتاً للتوحيد وعبادة الرحمن.

لقد حكى القرآن هذه الحقيقة ووضحها بقوله: (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) (الحج/ ٢٦). (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (البقرة/ ١٢٧).

وقد انتشرت دعوة إبراهيم في جزيرة العرب، وجعل البيت الحرام مركزاً لهذه الدعوة السامية، ومما تجدر الإشارة إليه أن قريشاً تنتسب إلى النبي إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام وتعتز بذلك، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم هو من ذريته المباركة.

وبعد فترة من الزمن دخلت الوثنية إلى مكة، دخلتها بعد انهيار سد مأرب وتفرق العرب في البلدان، وتأثرهم بالديانات الوثنية التي كانت منتشرة في بلاد الشام.

ويذكر المؤرخون أن قبيلة جرهم كانت تتولى سدانة الكعبة ورعايتها بعد وفاة نبت بن إسمعيل، فأزاحتها قبيلة خزاعة بالقوة، واستولت على موقعها الديني هذا، فدنّست البيت الحرام، وأدخلت إليه الأصنام والوثنية.

فكان أول مَن أدخل الأوثان إلى الكعبة عمرو بن لحي زعيم خزاعة، الذي انتصرت بقيادته على قبيلة جرهم، فقد جاء بالصنم الكبير هُبل ونصبه في البيت، فغيرت معالم التوحيد، وحرّفت الحنيفية التي دعا بها إبراهيم وولده إسمعيل عليهما السلام.

ويذكر المؤرخون أن عمرو بن لحي كان قد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التي زارها، ورأى وثنية أهلها، فتأثر بها[1].

وهكذا سادت الوثنية في مكة وغابت معالم التوحيد، ودنّس البيت الحرام، رغم تعظيم قريش وقبائل العرب كافة لهذا البيت المقدس واهتمامها بحجه وتقديسه أيام الجاهلية والوثنية، فكانت تعتبره حرماً آمناً وبيتاً مباركا.

---

[1] حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، ص ٤٥، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

وإذا كانت هذه هي عقيدة العرب السائدة آنذاك، وصيغة دياناتهم، فإن الأمم الأكثر حضارة وتقدماً منهم، وهم اليهود والنصارى والمجوس، كانوا أيضاً يعيشون حياة الجاهلية والضلال والانحراف العقائدي والظلم والاضطهاد السياسي والاجتماعي، ويخضعون لتسلط الطواغيت، فقد حرّف اليهود التوراة وشريعة موسى وما جاء به الأنبياء الذين بعثوا قبلهم.

كما حرّف النصارى الإنجيل وتلاعبوا بدعوة المسيح وعقيدة التوحيد التي طبّعوها بطابع الوثنية والتثليث، الذي تسرب إليهم من الحضارة الرومانية الوثنية والفكر اليهودي المنحرف.

فعدّوا الخالق العظيم ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس)، كما حرّفت بقية المبادئ والمرتكزات العقائدية والتشريعية في الديانة المسيحية، وكانت النصرانية آنذاك تملك قوة سياسية ومدنية هائلة، فقد كانت في بلاد الشام دولة الروم المسيحية، كما كانت مصر دولة مسيحية قوية أيضاً، وفي بلاد الحبشة كانت دولة الأحباش المسيحية التي تقع في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، في الوقت الذي كان فيه انتشار كبير للمسيحية في بلاد اليمن، بلاد الخصب والمدنية في جزيرة العرب، في حين كانت المجوسية (عبادة النار) الديانة السائدة في بلاد فارس التي تقع شرق الجزيرة العربية، وكانت دولة الأكاسرة القوة السياسية والمدنية الكبرى القائمة في تلك المنطقة آنذاك وكان لها امتداد في بلاد اليمن داخل الجزيرة العربية، كما كان لها امتداد داخل أرض الرافدين أيضاً[1].

وهكذا كانت تحيط بالعرب البدو المتخلفين، ثلاث دول كبرى، هي دولة الروم في المغرب، ودولة الفرس في المشرق، ودولة الأحباش في الجنوب، وكانت قوى سياسية وحضارية كبرى.

في حين كان العرب في مكة وما حولها لا يعرفون في تلك الفترة مفهوم الدولة والسلطة السياسية ولا التنظيم الإداري، ولا الحياة المدنية المستقرة.

---

[1] السيرة النبوية للندوي، ص٢١

فقد كانوا يعيشون سلطة القبيلة وتسلط الأسياد والأقوياء على الفقراء والعبيد، وكان المجتمع المكي مجتمعاً يتكوّن من ثلاث طبقات متميزة هي:

١. طبقة الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال، أمثال أبي سفيان وأبي لهب والوليد والعباس بن عبدالمطلب وغيرهم، وكانوا يمثلون الطبقة الرأسمالية الربوية والتجارية، التي تملك السلطة والسيادة، والتي كانت بسيطرتها على مكة وعلى البيت الحرام آنذاك، تملك نفوذاً واسعاً بين قبائل العرب وشعوبها.
٢. طبقة الفقراء والمعدمين الذين كانوا يعيشون حالة الفقر والبؤس والاضطهاد الاجتماعي.
٣. طبقة العبيد: وهي الطبقة التي لم تكن تعيش حالة الفقر والبؤس وحسب، وإنما كانت تعامل معاملة الحيوانات والمنبوذين، ويموت العبيد تحت السياط وأقدام الأسياد[١].

لقد كان الفقر والبؤس والجهل والمرض، أشباحاً مرعبة تسيطر على قبائل العرب المتناثرة في جزيرتها الموحشة الجرداء.

تلك الحياة والوضعية الاجتماعية المزرية، التي صوّرها لنا القرآن الكريم حين هاجم أصحاب رؤوس المال الجشعين، عندما تحدث عن حالة البؤس والفقر، الفقر الذي دعا بعضهم إلى قتل أولادهم والتخلص منهم.

لقد صورت إحدى آيات القرآن الكريم هذه الصورة المأساوية المروعة بنصها: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم"[٢]

فشرحت أبعاد المأساة الاقتصادية والوضع الاجتماعي المتردي، الذي كان يعيشه العرب تحت وطأة الجاهلية. ويتحدث القرآن في آيات أخرى عن الخوف والفقر فيذكّر بنعمة الإسلام الذي أبدلهم بالخوف أمناً حين ثبّت هذه الحقيقة بقوله: "أولَم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون"[٣].

---

[١] حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، ص ٢٠٨ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ص ٥٥-٦١
[٢] الإسراء/ ٣١
[٣] العنكبوت/ ٦٧

قال الطبرسي مُبيِّناً معنى الآية هذه: "أي ألم يعلم هؤلاء الكفار (أنا جعلنا حرماً آمناً) يأمن أهله فيه من القتل والغارة، (ويتخطف الناس من حولهم) أي يقتل بعضهم بعضاً فيما حولهم وهم آمنون في الحرم"[١].

وقال الراغب الاصفهاني في معجم ألفاظ القرآن: "أي يُقتَلونَ ويُسلَبون".

ويذكر القرآن بتلك الصورة المأساوية، صورة الرعب والخوف والفقر بقوله: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"[٢].

أما المرأة فكانت تعاني حياة البؤس والشقاء، وتُعامل معاملة الحيوانات والمتاع، فلا حقوق لها ولا كرامة، بل ولا يسمح لها أنْ تعيش على سطح هذه الأرض، وهي في عرف ذلك المجتمع الجاهلي مُلك للرجل، وتورث كما تورث الحيوانات والممتلكات الأخرى فقد كان الأبناء يرثون زوجات الآباء ويتزوجونهن.

تلك الظاهرة البشعة التي أشار إليها القرآن الكريم، وحرّم الإقدام عليها بقوله: "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً"[٣]

بل وكان أحدهم إذا ولدت امرأته بنتاً، سيطر عليه الهمّ والحزن، وشعر بالخوف من العار وسوء السمعة، ولجأ إلى قتلها أو دفنها حيّة أو تقبّلها على مضض واحتقار وكراهية، فكانت المرأة ضحية هذه العقلية المتخلفة والأعراف الاجتماعية البالية، فبلغت الجريمة والقساوة والوحشية بأولئك القساة الجفاة أن يدفنوا بناتهم وهن أحياء، للتخلص من الإنفاق عليهن، ومن العار والشنار الذي يخشون وقوعه من المرأة.

ويسجّل القرآن تلك المشاهد المأساوية في تاريخ المرأة المنكودة وينتصر لها ويدافع عن انسانيتها المعذبة فينادي في مجتمع العرب آنذاك مستنكراً أعرافهم ومواقفهم بقوله: "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون"[٤]

---

[١] تفسير مجمع البيان ٢٣٣/١
[٢] قريش/٣-٤
[٣] النساء/ ٢٢
[٤] النحل/٥٨-٥٩.

ثم يرفع صوته مرة أخرى مدافعاً عن انسانية المرأة وكرامتها: "وإذا الموؤدة سئلت، بأي ذنب قتلت"[١].

بل وينحط مستوى المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي المتخلف، فتتحول إلى سلعة وأداة للإشباع الجنسي، فينتشر البغاء والإباحية بشكل جعل المرأة تختار من بين الرجال الذين يمارسون معها عملية الزنا رجلاً، فتنسب إليه ابنها وتعتبره أباً له.

وليست هذه الصورة الإباحية الحيوانية هي أبشع صور الانحطاط الجنسي، بل وكانت هناك الأحياء الخاص بالبغايا اللواتي يرفعن الأعلام الحمراء، ويحترفن البغاء، فكانت العرب تسميهن بذوات الأعلام، بل كان البعض منهم يحترف الاكتساب بالبغايا، فيشتري الجواري ويسخرهن للعمل بالزنا وكسب المال من هذه الممارسة الجنسية.

وما هو جدير ذكره هنا أن تلك الظاهرة الأخلاقية الجاهلية، هي ظاهرة متفشية اليوم في المجتمعات الجاهلية المعاصرة، كالمجتمع الأوربي والأمريكي والمجتمعات الماركسية المتأثرة بهذا الأسلوب الجاهلي المنحط في كل أنحاء العالم، خصوصاً في العالمين الشرقي والغربي، مما يكشف وحدة السلوك والأخلاق والاتجاه الجاهلي.

ولقد تحدث القرآن عن تلك الظاهرة الأخلاقية الجاهلية، وحرّمها في العديد من آياته، وثبّت العقوبة الحاسمة على مقترفها، تلك الجريمة التي قادت البشرية اليوم إلى أسوأ كارثة تهدد الحياة بأسرها، وهي كارثة هدم الأسرة، وتمزيق روابط الحياة الاجتماعية المستقرة، وانتشار الأمراض الجنسية، كمرض الزهري والسفلس ومرض الأيدز، الذي يعد بعض العلماء خطره بأعظم من خطر القنبلة الذرية على البشرية.

لقد تحدث القرآن عن هذه الظاهرة بعدة آيات منها:

"محصنين غير مسافحين"[٢]

"والزانية لا ينكحها إلا زان" [٣]

"ولا متخذات أخدان"[٤]

---

[١] التكوير/٨-٩
[٢] النساء/ ٢٤
[٣] النور/ ٣
[٤] النساء/ ٢٥

"ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً"[١]

وقد وضع المفسرون أسباب نزول هذه الآيات فشرحوا لنا الوضعية الاجتماعية المنهارة آنذاك، وصورة الانحطاط والمعاملة الوحشية للمرأة.

وهكذا تتجسد طبيعة ذلك المجتمع الجاهلي المتخلف، تلك الطبيعة التي وصفها جعفر بن أبي طالب في حديثه للنجاشي ملك الحبشة بقوله:

"أيها الملك كنّا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نُشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام".

وهكذا تتجسد أمامنا الحياة الجاهلية بكل أبعادها ومرارتها وانحطاطها الأخلاقي والاقتصادي والعقائدي والسياسي والأمني والاجتماعي... الخ.

وعندما نعرف هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم الإسلام وعظمة نبي الإسلام الهادي محمد صلى الله عليه وسلم الذي استطاع بمشيئة ولطف إلهيين أن ينقذ البشرية، ويعضها على طريق المدنية والاستقامة السلوكية، مبتدئاً بمن حوله من العرب، وممتداً برسالته العالمية التي حملتها من بعده أمته، وبشّر بها الدعاة إلى الله سبحانه في كل مكان، وهي اليوم قوة حضارية، ورسالة الإنسان المتحضر والعقل العلمي المتحرر من سيطرة المادية والشهوانية المنحرفة، وملجأ الانسان ومشروعه الحضاري المؤمّل.

وصدق الله الذي وصف رسالة نبيه بقوله:

"قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"[٢]

"ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم"[١]

---

[١] النور/ ٣٣

[٢] المائدة/١٥-١٦

"استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم"[٢]

والآن نتحدث عن أوضاع دول ومجتمعات ذلك العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

الإمبراطورية الفارسية

تعتبر الإمبراطورية الفارسية التي تعرف بدولة الفرس أو الدولة الكسورية، من أعظم وأكبر الدول التي سادت المنطقة قبل البعثة النبوية، حتى إنها فاقت الإمبراطورية البيزنطية في الشهرة والقوة، ولقد مرت هذه الدولة بعدة أطوار قبل البعثة وبعدها، ونقف في هذا المقال على ذكر ما كانت عليه الدولة الفارسية من انحطاط وخلل كبير في الأنظمة السياسية والدينية والاجتماعية التي سادت قبل البعثة المحمدية.

الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الدولة الساسانية تحكم بلاد إيران في القرن السابع الميلادي ويكوّن للفرس مادة الإمبراطورية، ولكنها أخضعت الترك في بلاد ما وراء النهر، والعرب في العراق، وكانت حدودها الغربية غير مستقرة حسب قوتها، فأحياناً تغلب على أطراف بلاد الشام كما حدث سنة ٦١٤م عندما اجتاحت بلاد الشام واستولت على بيت المقدس، ثم استولت على مصر سنة ٦١٦م. ولم يستسلم هرقل امبراطور الروم بل أعاد تنظيم بلاده وإعداد جيوشه وهزم الفرس في آسيا الصغرى سنة٦٢٢م، ثم استعاد منهم سوريا ومصر سنة٦٢٥م، ثم هزمهم هزيمة ساحقة سنة٦٢٧م (٦هـ) قرب أطلال نينوى، مما أدى إلى ثورة العاصمة (المدائن) ضد كسرى الثاني، وعقد خليفته شيرويه الصلح مع هرقل، على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك، إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية، حتى تعاقب على عرش فارس في تسع السنوات التالية أربعة عشر حاكماً، مما مزّق

---

[١] الأعراف/ ١٥٧
[٢] الأنفال/ ٢٤

أوصال دولة الفرس، وجعلها مسرحاً للفتن الداخلية، حتى أجهز عليها العرب المسلمون في حركة الفتح. هذا عن الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت على بلاد فارس.

نظام الحكم:

كان نظام الحكم كسروياً مطلقاً، يقف على رأسه الملك، ولقبه كسرى، وصلاحياته مطلقة، وأحياناً يوصف بصفات الألوهية، فكسرى أبرويز وصف نفسه بـــ"الرجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جداً بين الرجال" مما يدل على الغرور والتعاظم، في حين وصفه المؤرخون بـــ"الملك الحقود المرائي الجشع الرعديد". وبينوا اهتمامه الكبير بجمع أكوام الذهب والفضة والجواهر التي ملأت خزائنه عن طريق المظالم التي استغل بها بؤس رعيته. وكان يلجأ الى المنجمين والكهان والسحرة لاستشارتهم في اتخاذ قراراته المهمة[١].

الحياة الاقتصادية:

احتكر الأقوياء الثروة ومصادرها، وانهمكوا في مباهج الحياة وملذاتها، وزادوا من ثرائهم بالربا الفاحش والمكوس والضرائب الثقيلة التي فرضوها على الضعفاء من الفلاحين والعامة، فزادوها فقراً وتعاسة، وحرّموا على العامة أن يشتغل الواحد منهم بغير الصناعة التي مارسها أبوه، وكان العامة من سكان المدن يدفعون الجزية كالفلاحين، ويشتغلون بالتجارة والحرف، وهم أحسن حالاً من الفلاحين الذين كانوا تابعين للأرض، ومجبرين على السخرة، ويجرّون إلى الحروب بغير أجر ولا إرادة. وكانت الجباة للضرائب لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجبايتها، وكانت الضرائب تفرض بصورة اعتباطية وخاصة وقت الحروب[٢].

---

[١] السيرة النبوية للصلابي، ص ١٦-١٩

[٢] إظهار الحق لرحمة الله الكيرانوي، ديوبند ١٠٧٧/٤-١٠٧٦

الحالة الدينية والفكرية:

لم يعرف الفرس الدين الحق، ولم تنتشر بينهم الأديان السماوية التي سبقت ظهور الإسلام إلا بنطاق محدود جداً، وكان أكثرهم على المجوسية، فمنذ القرن الثالث الميلادي صارت الزرادشتية ديناً للدولة، وقد تدهورت أخلاق رجال الدين الزرادشتي فوصفوا بالارتداد والحرص والاشتغال بحطام الدنيا، وحاول كسرى الثاني تجديد الزرادشتية وإحياء معابد النيران ونشر تفسير جديد لكتابها "الآفستا" وكانت عقوبة من يخرج عليها الإعدام. وتقوم العقيدة الزرادشتية على الثنوية، أي وجود إلهين في الكون هما إله النور (اهورا مزدا) وإله الظلام (أهد يمن) وهما يتنازعان السيطرة على الكون، ويقف البشر الأخيار مع إله الخير، والأشرار مع إله الظلام، وتقدس الزرادشتية النار، وقد أقيمت معابد النيران في أرجاء الدولة، ويعرف رجال الدين الزرادشتيون بـــ"الموابذة" وكل منهم يرأس مجموعة يسمون (الهرابذة) وهم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية. وهذه المعتقدات الباطلة لا تقدر أن تهب النفوس البشرية الطمأنينة والراحة النفسية، ولا تشبع تطلعها الى عبادة الله الواحد الحق، ولا تمنحها القيم الاخلاقية الرفيعة، ولاقواعد العدل الاجتماعي[١].

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

كانت الحياة الاجتماعية في إيران تقوم على عمادين: النسب والملكية، فكان يفصل النبلاء عن الشعب حدود محكمة، وكان لكل فرد مرتبته ومكانه المحدد في الجماعة، وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة ألا يطمع أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده.

وتقوم الأسرة على أساس تعدد الزوجات، وشاع بينهم الزواج بين المحارم، وكان وضع المرأة يشبه وضع الرقيق حيث بإمكان الزوج أن يتنازل عنها لزوج آخر دون

---

[١] ماذا خسر العالم ، ص – ٧٢

رضاها، كما شاعت عادة التبني للأولاد. وقد انتشرت الإباحية وعم الفساد الخلقي والاجتماعي خاصة عندما انتشرت المزدكية التي دعا إليها مزدك (ولد سنة ٤٨٧م).

وبالجملة: فإن أحوال العالم قبل الإسلام وصلت إلى حالة – من السوء والانحطاط – لا توصف، فأنزل الله دينه القويم، ورحمته للناس أجمعين، فهدى الله به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، فمن قبله سعد في الد نيا والآخرة، ومن رده شقي في الدنيا والآخرة[١].

الإمبراطورية البيزنطية

كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم الروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) وتتوسع فتحتل الأقطار الواقعة على حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي، وبذلك جمعت أجناسا عديدة من البربر والقبط والعرب إلى جانب الروم، ولم يكن بين هذه العناصر تجانس في الجنس واللغة والثقافة والتقاليد، ورغم انتشار النصرانية بين هذه الشعوب، لكنها لم تحقق لها الانسجام بسبب الخلاف المذهبي الذي أضعف ولاء رعايا الإمبراطورية في الشام ومصر لها وكان نظام الحكم ملكياً مطلقاً.

فالنصرانية لا تنظم المجتمع والدولة، بل تكتفي بتنظيم العلاقة بين الناس وخالقهم وشعارها (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)[٢].

الحالة السياسية والاقتصادية:

وكانت الفكرة السائدة التي تدعمها الكنيسة النصرانية هي أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب، فأضحى بذلك موطن تبجيل وتقديس من رعاياه في أمور السياسة والدين وكانت الطقوس والمراسيم تجري في البلاط بمشاركة الكنيسة ورجال البلاط، فإذا طلع الإمبراطور ركعوا أمامه جميعاً. ورغم النصرانية فإن القانون الروماني والحضارة اليونانية الوثنية كانا يسودان الحياة.

---

[١] فقه السيرة، للغضبان ص٤٥

[٢] السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص٢٢

إن الإمبراطور البيزنطي الذي عاصر ظهور الإسلام هو هرقل ٦١٠-٦٤١م ويعتبر من أعظم الأباطرة في التأريخ البيزنطي، حيث سعى إلى تجديد الإمبراطورية و إعادة تنظيم الدولة وبناء جيوشها وزيادة ثرائها بتنظيم الضرائب وطرق الجباية وتمكن من إحراز النصر على الإمبراطورية الساسانية التي كانت تتفوق عسكرياً على الروم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى النصر الرومي النصراني على فارس المجوسية، وفرح المسلمون في مكة به، وكانت حملات هرقل على فارس بين سنتي ٦٢٢ - ٦٢٨م (سنة١٢ بعد البعثة المحمدية - ٥هـ).

أما الحالة الاقتصادية، فإن الربا والاحتكار هما أساسا النظام، وقد فرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستائين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وقد أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بانحطاط هائل نتيجة المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة وإهمال الزراعة وتناقص العمران، ويكفي لبيان كيفية إدارة الإمبراطورية للولايات الخاضعة لها أن نستشهد بقول بتلر عن إدارة مصر: (إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس، وضرائب أخرى كثيرة العدد) ويقول: (مما لا شك فيه إن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة وكانت تجري بين الناس على غير عدل) ويقول (إن حكومة مصر الروحية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين). وحتى الروم أنفسهم تعرضوا لثقل الضرائب وخاصة الفلاحين الذين اضطرتهم الضرائب الباهضة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن[١].

الحالة الدينية والفكرية:

رغم أن الإمبراطورية البيزنطية تدين بالنصرانية، لكن تعاليم النصرانية لم تبق كما جاء بها عيسى "بل إن تعاليم الكنيسة انطوت على قدر كبير من تفكير الفلاسفة الوثنيين، واستخدمت الكنيسة وسائلهم وأسلحتهم العقلية في شرح العقيدة المسيحية".

---

[١] إيران في عهد الساسانيين ص١٥٥-١٧٠

وخلاصة القول أن النصرانية الحقة فقدت روحانيتها ووحدانيتها لما أدخله إليها داعيتها الكبير بولس من تعاليم وثنية نشأ عليها قبل تنصره، ولما تنصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أدخل إليها مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، وبذلك تحرفت الديانة وضاعت تعاليمها الأصلية، وانحدرت إلى عبادة القديسين والصور. وقد وقع الخلاف المذهبي الذي كان محوره تفسير طبيعة المسيح – عليه السلام – بين سكان الإمبراطورية، فقد تبنت الدولة مذهب الملكانية الذي يرى أن للمسيح طبيعتين؛ إلهية وبشرية، في حين انتشر مذهب اليعاقبة والمنوفستية في بلاد الشام ومصر، وهو يرى أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، وقد أدى هذا الاختلاف إلى شقاق عنيف بين الدولة ورعاياها، وحاول هرقل توحيد مذهب الإمبراطور، فعقد مجمعاً دينياً انتهى إلى إقرار عدم الخوض في طبيعة المسيح والاكتفاء بالقول بأن لله إرادة واحدة، لكن المصريين قاوموه فاضطهدهم بالتعذيب والتحريق، وفشلت محاولة التوحيد الديني، وضعف ولاء اليعاقبة والمنوفستية في الشام ومصر للإمبراطورية البيزنطية.

وهذا الخلاف المذهبي يوضح مدى الانحدار الفكري والانحراف العقدي الذي أصاب شعوب الإمبراطورية حتى جعلوا عيسى – عليه السلام – وهو عبد الله ورسوله إلهاً. سبحان الله عما يقولون.وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين والتمائم[1].

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

انتقلت تقاليد المجتمع اليوناني والروماني إلى الدولة البيزنطية، فلا غرابة إذا ما شاع الفساد الأخلاقي والانحلال الاجتماعي داخل البلاط وفي أوساط الشعب. وكان الإمبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقترب من مستواهم المعيشي الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه

[1] ماذا خسر العالم ، ص ٧٤-٧٨

الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد[١].

وهكذا فإن الطبقية والإقطاع وفقدان العدالة الاجتماعية كانت تطبع المجتمع البيزنطي، كما كانت القسوة والعنف والتعصب والجهل والخرافة تطبع حياة الأفراد، وما ذلك إلا بسبب ضعف الإيمان الصادق بالله ورسله، وطغيان المظاهر الخادعة على الحياة الدينية في الإمبراطورية. ورغم مظاهر الضعف والفساد في الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في وقت ظهور الإسلام وقيام حركة الفتوح الإسلامية، فإن الخطأ المبالغة في وصف ضعفها، فقد تمكنتا من حشد جيوش جرارة أمام تقدم المسلمين، وكانت جيوشهما تتفوق عدداً وعدة على المسلمين، ولكن الإيمان الصادق وروح الجهاد ونصر الله للمسلمين هو الذي أكسبهم المعارك الطويلة التي خاضوها ضد قوى منظمة وجيوش متمرسة وقلاع حصينة وأمم عريقة[٢].

العرب

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا[٣] منها:

١- العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطَسْم، وجَديس، وأمَيْم، وجُرهم وحضرموت ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها واضمحلت من الوجود قبل الإسلام وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.[٤]

٢- العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يشجُب بن قحطان

---

[١] مدخل لفهم السيرة ص٩٨

[٢] الطريق إلى المدائن، عادل كمال ص٤٠

[٣] فقه السيرة النبوية، للغضبان ص٤٥.

[٤] فقه السيرة، للغضبان ص٤٥.

وتسمى بالعرب القحطانية[١] ويعرفون بعرب الجنوب[٢] ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ وحمير[٣].

٣- العرب العدنانية: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًا، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد. وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلم منهم إسماعيل عليه السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معد، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مُضَر وربيعة.

أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقا، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة[٤].

أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذُبيان وعَبس من تيماء إلى حوران[٥] وتقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب وغيرهم من العلماء. ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل[٦] عليه الصلاة والسلام.

وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام،

---

[١] السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٧/١).

[٢] مدخل لفهم السيرة ص٩٨.

(٥) انظر: الطريق إلى المدائن، عادل كمال ص٤٠.

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شبهة (٤٨/١).

وذكر في ذلك حديثًا عن سلمة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتناضلون بالسهام، فقال: «ارموا بني إسماعيل، وأنا مع بني فلان» -لأحد الفريقين- فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لكم؟» قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[١] وفي بعض الروايات «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا».

قال البخاري: وأسلم بن أَفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[٢].

ووُلد الرسول صلى الله عليه وسلم من مضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت أبي سلمة قال: «قلت لها: أرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة»[٣].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم[٤].

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٥].

ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٢٩٨/٣) رقم ٢٨٩٩. (٢) انظر السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٨/١).

(٣) البخاري، كتاب المناقب (١٨٥/٤) رقم ٣٤٩١. (٤) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان ص٤٧.

(٥) رواه مسلم، باب فضل نسب النبي (١٧٨٢/٤) رقم ٢٢٧٦.

١- حضارة سبأ باليمن: وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب) واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عز شأنه: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ) [سبأ: ١٥-١٧].

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلا، ولا ماء، ولا طعاما، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۞ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[سبأ: ١٨، ١٩].

٢- حضارة عاد بالأحقاف: وكانوا في شمال حضرموت وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون[1] قال تعالى: (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) [الشعراء:١٢٣ ١٣٤].

٣- حضارة ثمود بالحجاز: دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٥٠/١). (٢) نفس المصدر (٥١/١).

وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع[١]، قال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) [الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وقال فيهم أيضا: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[الأعراف: ٧٤].

لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار ورسوم وأطلال، فقد اضمحلت القرى والمدن، وتخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار وأصبحت البساتين والزروع أرضا جُرُزًا[٢].

أحوال العرب:

أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة

---

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٥١/١)

والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[١].

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام التي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم. روى البخاري عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به»[٢].

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام: ٣٦].

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسما للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، وكان يقول:

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ؟؟ ... أدين إذا تقسّمت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزورُ
ولا غنمًا أدين وكان ربًا ... لنا في الدهر، إذا حلمي يسيرُ

إلى أن قال:

---

(١) انظر: الغرباء الأولون، ص٦٠.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، وفد بني حنيفة (١١٩/٥).

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفور[١]

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، قُس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه» وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومات قبل البعثة[٢].

ومما كان ينشده من شعره:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر[٣]

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (١٦٣/١). (٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٨٠/١).

(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة (٨١/١).

الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي[١].

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (والنشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا وحكمك، والنشيطة،

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقًا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم: «انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا».

وكان شاعرهم يقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٦٠).

(٢) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٣١.

شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد[١]

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول (حلف المطيبين)[٢].

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[٣] وكان -عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[٤].

ثالثـًا: الحالة الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربية الصحاري الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في أطرافها وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة كان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تنتقل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٦١/١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. محمد فلحي ص٣١.

(٣) نفس المصدر ص٣٣ - ٣٥. (٤) المصدر السابق، ص٣٥.

التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيما في مكة[١].

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزا متقدما في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) [العنكبوت: ٦٧]

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: (لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: ١-٤].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وإندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يسمى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، منير الغضبان ص٦٠.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[١] وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة[٢].

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) [البقرة: ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية[٣].

رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١- الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٨/١ إلى ١٠١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم محمد ص١٩.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١٠٢/١).

٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣- المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعضلها عن النكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوج امرأة أبيه[1] فنزل قول الله تعالى: (وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً) [النساء: ٢٢].

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات[2].

وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفا معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه وهما عصبته فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحركا في الميراث شيئًا» [3]، ونزل قوله تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٨٧/١).

(٢) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ص٢٢، ٢٣، ٢٤. (٣) تفسير القرطبي (٤٥/٥).

الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) [النساء: ٧].

وكان العرب يُعيّرون بالبنات؛ لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت، وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت فقال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [النحل: ٥٨-٥٩].

وكثيرا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى[١]؛ ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) [التكوير: ٨-٩].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرم ذلك قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) [الإسراء: ٣١].

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل[٢]. وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف[٣].

---

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ص٢٥، ٢٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٢/١). (٣) نفس المصدر (٨/١).

٤- النكاح:

تعارف العرب على أنواع النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها[١]: أرسلي إلى فلان فاستبضعي[٢] منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط[٣] ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت، ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة[٤] ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط[٥] به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم»[٦].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها كنكاح الخدن وهو في قوله تعالى:)وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ) كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح

---

(١) الطمث: الحيض.

(٢) استبضعي: الاستبضاع، طلب الجماع حتى تحمل منه.

(٣) الرهط: الجماعة دون العشرة.

(٤) القافة: جمع القائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد.

٥

(٥) التاطه: أستلحقه.

(٦) البخاري، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي رقم ٥١٢٧. (٧) فتح الباري (٩/١٥٠).

البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك[١].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق[٢]. وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العد[٣]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقا ما كن يحلمن بها[٤].

٥- الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[٥] إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله:)الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [البقرة: ٢٢٩].

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم)فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ) [البقرة: ٢٣٠].

---

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٠/١).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص٢٤، ٢٥.

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٨٨/١).

(٥) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص٢٥.

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة[١] قال تعالى:)الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ.
أَلِيمٌ) [المجادلة:٢- ٤].

٦- الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلا يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكانًا خاصًا به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة[٢].

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس وهو فرس لقيس ابن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسا قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان[٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩١/١).

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣١٢/١).

(٢) نفس المصدر (٣٤٣/١).

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم، حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (بُعاث) وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نهايته لصالح الأوس[١].

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد ابن حارثة فقد كان عربيًّا حرًا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًّا حرًّا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب على أغنامهما[٢].

٧- العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم -وإن كان باطلا- وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد؛ ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنيا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة[٣].

خامسًا: الحالة الأخلاقية:

---

(١) التاريخ الإسلامي، د. عبد العزيز الحميدي (٥٥/١). (٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٣/١).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٣/١). (٢،٣) المصدر السابق (٩٤/١).

كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمر والقمار، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين» «قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أَوَتزني الحرة[١]؟!!.

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا. لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا[٢] وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام ومن تلك الخصال والسمات:

١- الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة[٣].

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقَّادة[٤].

---

(٥) انظر: السيرة للندوي ص.١٢.

(٦) بلوغ الأرب (١/٣٩-٤٠).

(٦) انظر: مدخل لفقه السيرة ص٧٩، ٨٠

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلا عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة[١].

٢- أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخُلُق متأصلا في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقتــه، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنســان بــل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال[٢].

٣- أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًــا بــأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف:

وما مات منا سيد حتف أنفــه ... ولا طُلّ منــا حيــث كــان قتيــل

تسيل على حد الظباة نفوســنا ... وليست على غير الظبــاة تســيل

وكان العرب لا يقدمون شيئا علــى العــز وصــيانة العــرض، وحمايــة الحــريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم قال عنترة:

بكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني ... أصبحت عن غــرض الحتــوف

فأجبتهــا إن المنيــة منهــل ... لا بد أن أُسْــقى بكــأس المنهــلِ

فأقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتــل[٣]

وقال عنترة:

لا تسقني مــاء الحيــاة بذلــة ... بل فاسقني بالعز كــأس الحنظــل

مــاء الحيــاة بذلــة كجهــنم ... وجهنم بــالعز أطيــب منــزل[٤]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكــانوا يــأبون أن ينتهــز القــوي

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٥/١). (٢) ديوان عنترة، ص٢٥٢.

(٣) ديوان عنترة: د. فاروق الطباع ص٨٢.

الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

٤- عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته[١]، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار، وإليك مثال على ذلك.

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: وا ذلاه يا لتغلب.. فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفا للملك معلقا بالرواق فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا ما في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلا:

بأي مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم[٢] فيها قطينا[٣]
بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدًا ... متى كنا لأمك مقتوينا[٤]
إذا ما الملك سام الناس خسفًا ... أبينا أن نقر الذل فينا[٥]

٥- الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٩٥).

(٢) القيل: هو الملك دون الملك الأعظم. (٣) القطين: هم الخدم.

(٤) مقتوينا: خدمة الملوك. (٥) انظر: شرح المعلقات للحسين الزوزني ص١٩٦، ٢٠٤.

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام، ويدل على أنفتهم من الكذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه»[١].

أما وفاؤهم: فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وَلث[٢] وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يُغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله»[٣].

والوفاء خلق متأصل بالعرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة، فغلظ على من آوى محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته، قال صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من آوى محدثا»[٤].

ومن القصص الدالة على وفائهم[٥]: «أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: (بؤ بشسع نعل كليب) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه» وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار[٦]. ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٧.

(٢) الولث: الوعد الضعيف.

(٣) بلوغ الأرب (١/١٥٠).

(٣) انظر: مدخل لفهم السيرة ص ٩٠.

(٤) رواه مسلم، كتاب الأضاحي، رقم ١٩٧٨.

(٥) تاريخ الطبري عن يوم ذي قار (٢/٢٠٧).

(٦) نفس المصدر ص٩١.

ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»[١]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦- الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل[٢]

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده[٣].

٧- قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

---

(١) بلوغ الإرب (٣٧٧/١).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٩٦/١، ٩٧).

وأغض طرفي إن بدت لي حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيدا ضخما في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيمانا بعد أن ملئت كفرا، وعدلا بعد أن ملئت جورا، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرا بعد أن طفحت شرا[١].

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح[٢].

بعث النبي صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل، والبشرية تعج بالكفر والضلال والانحلال، وماسبق من بحوث عن جزيرة العرب يبين هذا الأمر وفي هذا المقال سنقف على بعض النواحي التي تتعلق بالبيئة التي بدأت فيها دعوة الإسلام.

تقع مكة في بطن واد، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي، فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس وإلى الغرب جبل قعيقعان. ويمتدان بشكل هلال فيحصران عمران مكة، وتعرف المنطقة المنخفضة من الوادي بالبطحاء ويقع بها البيت العتيق، ويحيط بها دور قريش، أما المنطقة المرتفعة فتعرف بالمعلاة، أما عند طرفي الهلال فتقوم دور ساذجة

---

(١) انظر: السيرة النبوية بأبي شهبة (٩٧/١)

(٢) انظر: نظرات في السيرة للإمام حسن البنا، ص١٤.

لقريش الظواهر وهم أعراب فقراء أصحاب قتال، لكنهم دون قريش البطاح في التحضر والغنى والجاه.

وكانت صلات النسب بين قريش وكنانة – حيث أن قريشا تنتمي إلى كنانة التي تسكن قريبا من مكة – تعطي مكة عمقاً استراتيجياً، وقد وثقت صلة النسب بالمحالفات أيضا، وكان الأحابيش الذين يعيشون قريبا من مكة حلفاء لقريش أيضا، وكانوا يستخدمون في حراسة القوافل المكية، وامتدت الأحلاف لتشمل القبائل التي تقع على خطوط التجارة المكية إلى الشام والعراق واليمن، والاقتصاد التجاري يحتاج إلى الأمن، وقريش كانت تستعمل سياسة الحلم واللين وليس القوة للوصول إلى غاياتها التجارية وأمان طرقها الخارجية. ولم تدخل قريش في حروب قبل الإسلام سوى حروب الفجار الأربع التي هي حروب صغيرة ومناوشات. وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم آخرها وهو الفجار الرابع وعمره عشرون سنة، ولم تحرز قريش النصر على الأعراب في تلك المناوشات. وقد ساعدها على تحقيق الأمن وجود الكعبة التي يحج إليها العرب من شتى الأصقاع حيث تحيط بها أصنامهم الستون والثلاثمائة.

وقد اتسم (الملأ) بالمحافظة الشديدة على العقائد والتقاليد والأعراف السائد لتأكيد حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية وكل ذلك يتحقق بالمحافظة على الأوضاع السائدة ووحدة أهل مكة، مما يفسر شدة مقاومتهم للإسلام عند ظهوره، فقد رأوا فيه تهديدا لوحدة قريش، وأغاظهم جدا أن يهاجر المسلمون إلى الحبشة ثم المدينة.

وقد قام أبناء قصي وأحفادهم بأعمال مهمة أدت إلى ازدهار مكة وبنفس الوقت أبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم ومكنت لسيادتهم، فإن قصيا هو الذي جمع قريشا ومكن لها في مكة ونظم شؤونها، وأمسك أبناؤه بزمام وظائفه من بعده من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، وتمكن هاشم بن عبد مناف بن قصي من عقد " الايلاف " وتوسيع نطاق التجارة المكية بإخراجها من الحدود المحلية إلى الدولية، وقام بحفر عدة آبار لخدمة قريش والحجيج معا، وعرف المطلب أخو هاشم بالنسك والأمر بترك الظلم والبغي والحث على مكارم الأخلاق، وعرف عبد المطلب بن هاشم بـــ" الفياض " لجوده

وبـ"شيبة الحمد " لكثرة حمد الناس له، وقد اشتهر بحفر ماء زمزم التي طغت على مياه آبار مكة الأخرى.

وكان أبناء قصي قبل حفرها يأتون بالماء من آبار خارج مكة، ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ولا زعيم مكة الوحيد، لكن صلته بشؤون البيت العتيق وخدمة الحجيج جعلته من وجهاء مكة وهو الذي حادث أبرهة عندما غزا الأخير مكة.

إن أصدق مصدر يبين عقائد الجاهلية هو القرآن الكريم، من خلال جدله الديني مع المشركين وتفنيد عقائدهم، وقد بين الله تعالى في القرآن أن العرب المشركين كانوا يعبدون آلهة لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم عنده. وقد أعماهم التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل والأخذ بالدليل الصحيح، واستتبع الانحراف في العقيدة انحراف في العبادة والسلوك والشعائر والشرائع، فإذا بمناسك الحج تدخلها الوثنية، حيث وضعت الأصنام حول الكعبة، وجرى الطواف حولها مع التعري من الثياب أحيانا، وأصبحت قريش أخيراً لا تخرج إلى عرفات بل تقف بمزدلفة خلافا للناس. وهكذا ابتدعوا وشرعوا ما لم يأذن به الله مع ادعائهم أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام. وكان تصورهم لله فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته فينكرون بعض صفاته ويسمونه بأسماء لا توقيف فيها أو بما يوهم معنى فاسداً، وينسبون إليه النقائص كالولد والحاجة، فزعموا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا الجن شركاء له – سبحانه –، وجحدوا القدر واحتجوا به على الله تعالى. ومن معتقداتهم إنكار البعث، فعبادتهم للات وتقربهم للأصنام بالقرابين والنذور ليس من أجل الآخرة، بل لتحقيق مطالب دنيوية مثل: زيادة الأموال ودفع الشر والضرر عنهم في هذه الدنيا إذ لا علم لهم بالآخرة، ويستثنى من عموم المنكرين للبعث عدد ممن كانوا يقولون بالبعث.

وبالجملة: فأمور الناس قبل البعثة كانت في حالة من السوء لا توصف فجاء الله بهذا الخير، فمن قبله صلح أمره في الدنيا والآخرة، ومن رده شقي في الدنيا والآخرة.والله أعلم.

الفصل الثاني

أسباب نهضة و تخلف المسلمين عند الندوي وغيره من العلماء و المثقفين

أسباب نهضة و تخلف المسلمين عند شكيب أرسلان:

أسباب نهضة المسلمين في الماضي:

الدين الإسلامي هو السبب الأول لارتقاء المسلمين في الماضي، فإنه لما ظهر تمسك به العرب، وبفضله نشأت فيهم الألفة والو حدة، والمدنية والحضارة، والرحمة، وعبادة الله، بعد أن كانوا أهل جاهلية وفرقة، وقسوة، وعبادة أصنام، وصاروا بفضله أصحاب عز ومنعة، ومجد وثروة، وفتح الله بيدهم نصف كرة الأرض في آقل من نصف القرن، وفتحوا العالم كله لو لم تنشأ فيهم الخلافات في أواخر القرن الأول، إلا أن الفتوح التي حصلت في تلك الفترة تكفي إدهاشا للأجانب، وفي ذلك أقوال عدة لهم. قد اعترف نابليون الفاتح وغيره من آبرز قواد العالم بعبقرية عمره علي رضي الله عنهما.

فكتاب هذا الدين (القرآن) هو المرجع لنشأة العرب ونهضتهم، ويقول شكيب أرسلان: "فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقا جديدا وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها"[1]. فهذا السبب الذي نهض به المسلمون باق فيهم أم ارتفع، ولم يبق منه إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه، ومن الكتاب إلا الترنم به، دون عمل بها يؤمر، وانتهاء عما ينهى، هذا السبب مفقود فيهم بلاشك، وما وعد الله للمسلمين من نصر واستخلاف في الأرض منوط بالتمسك بالإيمان ومقتضياته، لا أنه ينصرهم بمجرد إعلانهم أنه مسلمون، وذلك ما تصرح به آيات القرآن الكريم، فليس لنا أن نقول أن الله

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم للأمير شكيب أرسلان / طبعة دار مكتبة الحياة / بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ص: ٤١.

تعالى أخلف وعده، وخذل المسلمين، وأن القرآن تغير، لا بل تغير المسلمون: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". فلما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، وسلبهم العز والمجد، لا يمكن أن أمة لا تعمل شيئا، والله ينصرها، وهي قاعدة عن جميع العزائم، ولا تقوم بما قام به الأولون منهم، فكيف يظنون أن الخيرات تفيض عليهم كما فاضت على أسلافهم. هل تتصور أن أحدا يستحق الجائزة والعز، ولم يجتهد أو لم يلعب دورا في شيئ، وهل تتصور أن أحدا وجد غلة دون حدث ولا زرع، إن يحدث هذا يقود الناس الكسل، وذلك ينافي أيضا القانون الطبيعي الذي يجري في العالم منذ أن خلق. يقول شكيب أرسلان باحثا عن سبب نهضة المسلمين وارتقائهم:

"إذا فحصنا عن ذاك وجدنا أن السبب الذي به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقودا بلا نزاع، وإن كان بقي منه شيئ كباقي الوشم في ظاهر اليد فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين نقول: أين عزة المؤمنين؟ من قوله تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولو كان الله قد قال: وكان حقا علينا نصر المؤمنين. بمعنى أنه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى أنهم يعلنون كونهم مسلمين، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر، ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم، وأن لا يبدلهم الذل والضعة، من ذلك العز وتلك الرفعة، بل كان ذلك يعد منافيا للعدل الإلهي، والله عز وجل هو العدل المحض.

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آباؤها؟ وذلك يكون أيضا مخالفا للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم.

وما قولك في عزة دون استحقاق، وفي غلة دون حرث ولاندع، وفوز دون سعي ولا كسب، وفي تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد؟ لا جرم أن هذا مما يغري الناس

بالكسل، ويحول بينهم وبين العمل، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها وهو مما يستوي به الحق والباطل، والضار والنافع، والموجب والسالب، وحاشا الله أن يفعل ذلك. ولو أيد الله مخلوقا بدون عمل لأيد من دون عمل محمدا رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنضال، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية[١]. وعندما تلقى مسئولية على عواتق أمة وهي لا تؤدي منها إلا شيئا قليلا ثم تطمع أن يجزيها الله بذلك القليل الجزاء الكامل فذلك ليس إلا حسن ظن منها، وأن هذا ينافي القانون الإلهي والوعد الإلهي الذي لا يزال باقيا منذ أن خلق الكون، كما أنه مخالف لحكمة التشريع، حيث يقول الله سبحانه: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله". ليس المسلمون اليوم على الوصف القرآني، وليسوا على آثار سلفهم الذين كانوا يتهافتون للشهادة، وكانوا يعبرون عن يوم الشهادة بيوم الفرح لأنفسهم، فأين المسلمون اليوم منهم.

أسباب تأخر المسلمين عنده:

١. الجهل:

هذا أعظم تأخرهم عند أمير البيان شكيب أرسلان حيث يقول: "من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها"[٢].

٢. العلم الناقص:

يقول أرسلان: "العلم الناقص أشد خطرا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدا عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون، أقول: ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم[٣].

---

[١] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم / شكيب أرسلان ص:٤٥.

[٢] المصدر السابق ص:٧٥.

[٣] المصدر السابق.

٣. فساد الأخلاق:

هذا هو السبب الثالث لتأخرهم عند أمير البيان، فهو يكتب: "ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين. ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء ــ إلا من رحم ربك ــ فوق المعارف، ولله در شوقي إذ قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أن الأمة خلقت لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون،وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون في نعمائهم، الضاربون بالملاعق في حلوائهم، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة، ولقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة عن بعده إلى الصواب.

وهكذا تستقيم الأمور، لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد، متخلين بالورع، متغلين عن حظوظ الدنيا، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي فكان الخلائف والملوك يرهبونهم، ويخشون مخالفتهم، لما يعلمون من انقياد العامة لهم، واعتقاد الأمة إمامتهم، إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب، والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمر، وكل هذا إثمه في رقاب هؤلاء العلماء"[1].

---

[1] المصدر السابق ص:٧٦.

٤. الجبن والهلع:

كان المسلمون معروفين بشجاعتهم، وكان الواحد منهم يساوي مائة في القوة والشجاعة، ولكنهم الآن عادوا يخافون عدوهم ويخافون الموت الذي لم يكونوا يقيمونه أي وزن في سابق الأزمان، والأسف أن الإنجليز لا يخافون اليوم الموت، وقد عوضت الجرأة منهم الهيبة عليهم كما قال طارق بن زياد في خطبته الشهيرة موجها إياها إلى الجند المسلم، وهذا مصداقا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يدخل قلوب المسلمين الوهن في الزمن الأخير، وعند ما سئل: ما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت. المسلمون يبلغون غايات بعيدة يبلغها الإنجليز في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة، وقد قالَ الله تعالى: ولا تهنوا في ابتغاء القوم. إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون.

٥. القنوط مع الجبن:

وبالإضافة إلى هذا الجبن اعتراهم اليأس والقنوط من رحمة الله، فبعض المسلمين يظنون أن الإنجليز هم الأعلون في كل حال، وأنه لا يمكن مقاومتهم، ولا مغالبتهم، ولا يزال هذا التهيب يتفاقم يوما فيوما، فالحال اليوم أن الإنجليز يغلبون المسلمين بالرعب والهيبة فقط، فكثيرا ما نرى عددا قليلا من الإنجليز يقومون لعدد كثير من المسلمين، وهذا ضد ما كان في العصور الأولى:

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطمع الليئم

في الزمن الغابر كان يأتي عشرون مسلما من مكان إلى آخر ويستولون عليه ثم لا يزالون يزدادون عددا فيدفع الأعداء إلى أن يصالحوهم ويؤدوا الضرائب المفروضة عليهم[1]. هناك شبهة من بعض الناس السخفاء الجهلاء يقولون: هيبتهنا وشجاعتنا كانت، ولكن في زمن لم يتم فيه اختراع آلات القتل الحديثة، والمدافع والدبابات والطيارات، وقبل أن يبلغ الإنجليز من العلم والطاقة المبلغ الذي بلغوه الآن، فهذه الشبهة مبنية على جهلهم

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص:٧٨.

وسخفهم، فإن لكل عصر علما وصناعة ومدنية تشاكله، فكانت في العصور الوسطى علوم تشاكلها كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر، وكانت في تلك العصور آلات قتال ودبابات ومنجنيقات، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات والديناميت اليوم، هذا وليست الآلات والدبابات والمخترعات الحديثة الأخرى هي باعثة العزائم، وموقدة نيران الحمية في البشر، بل الحمية والعزيمة التي تأتي بالطيارات والدبابات، وما هذه إلا مواد بماء لا فرق بينها وبين أي حجر. وصدق أمير البيان عند ما قال: "المادة لا تقدر أن تعمل شيئا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح، فإذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك نجد كافة المخترعات والأدوات على طرف التمام"[1]. يقول أولئك السخفاء الجهلاء: ينبغي لكل هذا العلم الحديث، وهو مفقود عند المسلمين، فلذلك يصنع الإنجليز ما لا يصنع المسلمون. جوابه أن العلم الحديث متوقف على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث والصناعة الحديثة، ومن أروع أمثلة ذلك اليابان فكانوا متخلفين كسائر الأمم الشرقية الأخرى، ولكنهم عندما أرادوا أن يواكبوا الأمم الراقية تعلموا علومهم، وصنعوا صناعاتهم، فلم يمض إلا خمسون سنة حتى أصبحوا يعدون أمة راقية. فكذلك إذا أرادت أمة مسلمة اللحاق بالأمم الراقية، فليس ذلك عنها ببعيد، اليابان تعلموا علوم أوربا، واقتدوهم في الصناعة والاختراع مع بقائهم على دينهم وحضارتهم. ألا يمكن المسلمين هذا الرقي وهذا الاختراع والصناعة مع تمسكهم بدينهم وثقافتهم، فالأصل الإرادة والعزيمة، فكل أمة أرادت شيئا وثبتت عليه وخططت له وجدته، ولكن جمع الأسلحة يقتضي السخاء بالأموال، وهم لا يبذلون، وإنما يريدون الانتصار بدون سلاح، أو السلاح بدون البذل، ثم حينما ينتصر العدو عليهم يقولون: أين نصر الله، الذي وعد المسلمين إياه بقوله: وكان حقا علينا نصر المؤمنين. وهم يعلمون أن هذا الوعد مضمون بالعمل، وبذل الأموال والاجتهاد، وليس فقط بالقول بأننا مسلمون، وبمجرد الدعاء، وما هو ضغث على إبالة أنهم بدلا من الإنابة إلى الله والاجتهاد والبذل يلجأون إلى قبور الأولياء وضرائح المشايخ ويستغيثون بهم، فلكونهم

---

[1] المصدر السابق ص:٧٩.

غير متسلحين بالأسلحة الحديثة والعلم الحديث لا يستطيعون أن يناهضوا الإنجليز ويقاوموهم، وكلما يلتقيان يتغلب الإنجليز عليهم، وذلك ما أدى إلى أن فقد ثقتهم بأنفسهم، واستولى عليهم اليأس والقنوط من رحمة الله، وتعوضت القلوب الجرأة عليهم الهيبة والرعب منهم، وأسلموا أنفسهم إلى أيدي أولئك الإنجليز الأعداء، ولم تعد ذاكرتهم تحفظ هذه الآية: "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس" ولم يذكروا تلك الساعة أنه لا يجوز اليأس والقنوط من رحمة الله، وهو مرادف للكفر. يقول الله تبارك وتعالى: "الذين قال لهم الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء" وكما أريد استنهاضهم لإعانة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية ترد لتمحوهم كان جوابهم: البذل في هذا السبيل لا يعود لنا بأي دلائل، ولكن هذا الاستسلام لا يزيدهم في الواقع إلا ويلا، وأما أعداؤهم فهم بذلك يصبحون مستبدين، وسيتوصلون عند التأمل إلى أن المال لا يصير وافرا بالشيخ به، وإنما يعودون فقراء، فإن الأمة إذا كان العدو مستوليا عليها لم تكن حرة في التجارة والاستثمار، بل العدو يغصب ويسلب المال الذي تربحه ولا يترك لها إلا رفاتا نخرة، وأحيانا يصابون بالقحط والمجاعة فيموتون بذلك كما نرى في بعض البلدان المتخلفة، وكلما تنزل المجاعة والقحط بأي بلد لاترى فيه إلا مسلمين يموتون جوعا. يقول أمير البيان: ضن المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي شل حركتهم السياسية وفت في عضد قوميتهم إلى أن صارت الأمم الغالبة على أمرهم، لا تحسب لهم أدنى حساب ولو كانت تحسب لهم حسابا ما كان الفرنسيس انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صار خمس وسبعون في المائة(٧٥%) منها ملكا للفرنسيس وصار ثلث أراضي تونس ملكا لخمسين ألف فرنسي مع أن الأهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم يملكون الثلثين لا أكثر، وأيضا لما كانت فرنسا ابتزت أهالي الغرب الأقصى ثمانمائة ألف هكتار وسلمتها للمستعمرين الأفرنسيين، ولما كانت فرنسا تنفق ثلاثة أرباع ميزانية المغرب المالية على ١٩٠ ألف فرنسي وتنفق الربع الباقي على مسلمي الغرب مع أنه سبعة ملايين نسمة ومع أن ٨٠ في المائة من ميزانية المغرب هي

من أموال المسلمين. وأغرب من ذلك أن الواحد من يهود المغرب فضلا عن الفرنسيس يستفيد من الميزانية المغربية أكثر من أربعين مسلما وغرب منه أنه من هذه الميزانية التي أربعة أخماسها من جيوب المسلمين يأخذ المبشرون والقسوس دعاة النصرانية مئات ألوف من الفرنكات لأجل بث المسيحية بين المسلمين، فلولا هوان المسلمين على دول الاستعمار وكون هذه لا تقيم وزنا ما كانوا يستخفون بهم إلى هذا الحد الأقصى، ولقد تحديناهم مرارا أن يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما أجابونا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسا، ولو تأملوا لعلموا أن نصحنا لهم بإنصاف المسلمين هو نصح عائد إلى مصلحتهم وأن العدو لا يشير عليهم باستجلاب قلوب المسلمين أبدا وإنما يريدها حامية بين الفريقين إلى ماشاء الله"[١]. وسبب هذا الشح أن الأعداد استأثروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين إلا الفقر، فالمسلمون يجعلون عدم مساعدة إخوانهم سببا لفقرهم وعدم بذل أموالهم، وفي هذا الحديث شيئ من الصحة، لأنهم بخلوا بالمال فأدى ذلك إلى ذلهم وخضوعهم للعدو، والفقر والجوع، والذل يتبع الفقر، والعز يتبع الثروة، كما يقول المثل: من عزبز. فالمسلمون ليس عندهم اليوم مال ولا عز، وذلك مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع، قالوا: أو من قلة فينا يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت". (رواه البيهقي) معنى هذا الحديث أن المسلمين يأتي عليهم يوم يصبحون فيه فريسة الأجانب، وتمتد إليهم أيديهم من كل جانب، فعصرنا هو العصر الذي قيل فيه ذلك. يقول الأمير شكيب: المسلمون لا يكون عيبهم يومئذ قلة الكثرة بنفسها لا تفيد أن تقترن بجودة النوع والكمية التي لا تغني عن الكيفية، وعلة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل، صريح ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت"[٢].

---

[١] هامش لماذا تأخر المسلمون للأمير شكيب ص:٨١-٨٢.

[٢] المصدر السابق ص:٨٣.

المسلمون كانوا يخشون دول الاستعمار بالأمس فهم يخشونها اليوم ألا وهي دول أوربا وأمريكا، ويطيعونها حتى على آبائهم وأبنائهم وأعز الناس إليهم وأغلى الأمور عليهم وعلى دينهم ووطنهم وقوميتهم وثقافتهم، وإن سألتهم عن أسباب هذه الطاعة العمياء قالوا: إننا إن لم نطعهم أهلكونا ونحن لا قبل لنا بمقاومتهم. أهم ينسون أن هذه هي الفئة الطاغية الغاشمة التي تحاربهم وتشن غارات عنيفة على بلدانهم ومناطقهم وهي التي تقتل أبناءهم وتستحيي نساءهم وتدمر قراهم وتفتك منهم ذوي خبرة ونهى، أهم ينسون أنهم لو عصوهم لكانت عاقبتهم الموت، فهذا هو الموت الذي يصيبهم عندما يطيعونهم: "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم". يقول الأمير شكيب: "ولعمري إن تعليل هذه الحالة الروحية التي نجدها عند المسلمين الخاضعين لدول أوربا المستعمرة ليتعذر على نطس أطباء الاجتماع جميعا إذ لا يمكن أن يعقل صنفان من الموت أحدهما من المذاق لا نقوى على مواجهته النفس وهو الموت في مقاومة الأجنبي المتغلب والثاني مقبول الطعم سهل الاقتحام وهو الموت في مقاتلة عدو ذلك المتغلب. لاجرم أن هذه حالة روحية شاذة لا تفسر ولا تعلل إلا بالمرض وعدم اعتدال المزاج وكون الرعب المستمر الذي أوقعه في قلوبهم الأجنبي المتغلب بأن أوجد في نفوسهم هذه الحالة الغريبة التي لم أجد لها شبيها في التاريخ إلا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين إلى بلاد الإسلام ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة التي كانت في تركستان وإيران والعراق، وذبحوا الملايين من أهلها ذبح الشياه، ودمروا بغداد دار الخلافة وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسي تحت أرجل الفيلة، وجعلوا من جماجم القتلة آكاما عالية فوصل الرعب بقلوب المسلمين إلى أن صار المغولي الواحد يدخل على المائة منهم فيقتلهم جميعا وأسلحتهم في أيديهم ولا تحدثهم نفوسهم بأدنى مقاومة ولا يقال لمثل هذا أنه مجرد انكسار قوى معنوية بل هو أبعد مدى من هذا بكثير فإن انكسار القوى المغوية لا يسلب المغلوب كل آثار النشاط للمقاومة وإنما كان ذاك مرضا زاغت به الطبائع البشرية عن مركزها وعنها استولى على العقول وجردها من خواص الإدراك[1]. وقد حدث أحد المؤرخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك

---

[1] المصدر السابق ص:٨٥-٨٦.

الوقائع بعينه فقال ما معناه: فررت من التتار فساقني القدر إلى بيت وجدت فيه ثمانية عشر رجلا كلهم تخبأوا فية لعلهم ينجون من الموت فبينما نحن جالسون إذ دخل علينا أحد التتار فرآنا جميعا وعلى وجوهنا غبرة الموت ولم يكن معه سلاح يقتلنا به فقال لنا: ماذا تنتظرون؟ قالوا: ماذا تريد أن نصنع؟ قلت: نقتله. قالوا: لا تمتد أيدنا إليه لأننا نخاف. قلت: مم تخافون؟ إن كان خوفكم من الموت فهو قاتلكم على كل حال. قال: وما زلت أشجعهم إلى أن اقتنع بكلامي اثنان منهم لا غير، فلما رجع المغولي وبيده السكين الذي يريد أن يقتلنا به هجمنا عليه نحن الثلاثة ونزعنا السكين من يده وقتلناه به وخرجنا ونجونا. هذا وبقي المسلمون في رعب من التتار غير ممكن التعليل إلى أن خرجت إليهم العساكر المصرية في زمن الملك قطز، فتلاقي الجمعان في عين جالوت من فلسطين، وانهزم التتار هزيمة شنعاء ثابت بعدها عزائم المسلمين إليهم، وأخذوا يفتكون بالتتار، وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس ولو لم يدخل التتار في الإسلام لكان المسلمون أبادوهم. وخلاصة القول أن المسلمين كلما آثروا السلامة ازدادوا موتا وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياة وإلى هذا أشار الله تعالى في كتابه الكريم حين يقول: "يآيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم: انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيئ قدير". وقال: "و أنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" أي أن عدم إنفاقكم في سبيل الله التهلكة بعينها. وقد أصابت المسلمين تهلكة عدم الإنفاق وصدق فيهم ما حذرهم الله منه. حينما يتجاوز المرء حده في حب الدنيا فإنه يصير لا محلاة محروما من التمتع بها وأنه حينما يغالي في الاحتفاظ بحياته فإنه يهلك، هذه هي سنة الله في الخلق، فلذا يأمر القرآن المرأ بأن ينظر إلى الحياة والمال نظرة ازدراء واحتقار، وأن يكون ثابتا في كل أمر، ولا يكون قانطا من روح الله، وصابرا في كل شأن من الشؤون الدنيوية والدينية وإن كانت المصيبة له أعظم وأجل، مصداقا لقوله تعالى: "وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما

ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين". يريد الله أن يصدق المسلمون على هذه الآية حتى ينزل نصر الله والسعادة منه.

٦. الجمود على القديم:

هذا الجمود أحد أسباب انحطاطهم عند الأمير شكيب، وهذا هو شعار الشيخ الندوي، فإن المؤسسة التي تولى إدارتها كانت تقوم على شعار "الجمع بين القديم الصالح والجديد"، ومبدأ "خذ ما صفا ودع ما كدر"[١] وقد تأسست عندما كان المسلمون في الهند موزعين بين طبقتين، طبقة تقول بإلغاء كل قديم واتخاذ كل جديد حسنا كان أو قبيحا، وطبقة لا ترضى بإدخال أقل تعديل على الحضارة الإسلامية، ولا تقبل أي شيئ جديد وإن كان فيه جانب من النفع لصالح المسلمين، ظنا بأن قبول أي شيئ من غير المسلمين كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار، وقد أضاع الإسلام جاحد وجامد، جاحد يجحد كل شيئ قديم، وجامد يجمد على القديم فحسب. يقول الأمير: "الجاحد يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس، الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنئ الأصل، فيسعى هو في إنكار أصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره[٢].

وكما أن الجاحد أضر للإسلام وأهله كذلك الجامد، إلا أن الجامد ليس سيئ النية كالجاحد. الجامد يمنح أعداء المدنية الإسلامية فرصة لمقاومتها، وهو الباعث على الفقر، فالمسلمون مصابون به اليوم، فيظن أن الإسلام إنما هو دين آخر، والحق أنه دين دنيا

---

[١] يراجع للتفصيل تاريخ ندوة العلماء الجزء الأول.

[٢] المصدر السابق ص:٨٨.

وآخرة، فليس في الإسلام حد للكسب كما هو في أديان الصين والهند، وليس فيه رهبانية كما هي في المسيحية، وهذه ميزته الأساسية على سائر الأديان.

الجامد يحارب العلوم الحديثة محتجا بأنها من وضع الكفار، وإن كانت فيها ثمرات عظيمة تكون خيرا في سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه، وسببا في قمع فقر المسلمين الذي ابتلوا به، هذا وإننا نحصر في جانب آخر مساعينا في العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية وجعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجهت إلى الأرض، فإن هذه الأمم الآن هي عالية في الأرض مكاننا، فإن القيادة كتبت للأمة المسلمة، ولكن غيرهم سلبوها، فالأمر كله في يدهم، فهم الآن يريدون أن يأفكوا المسلمين عن دينهم، وأما الدنيا فهم مالكوها من قبل، يقول الله سبحانه: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض..." وبهذا الطريق إنه يأتي بالأمة على شفا الدمار، ولا يذكر تلك المشاكل والأزمات التي تمر بها الأمة فبلغوا من الفقر مبلغا نراهم عليه اليوم حتى أصبحوا عيالا على أعدائهم، الذين ليس لهم صلة بهم دحقما وعرقا، دينا ونسبا، ولا يحملون مثقال ذرة من عواطف المواساة والعطف، والرحمة والرثاء.

أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير:

فقد الثقة بالنفس:

مرض اجتماعي سبب انحطاطهم في العصر الأخير، وآفة روحية كلما تستولي على إنسان هلك، وكلما نزلت بأمة فنيت، وكيف يشتفي الإنسان إذا ما ظن أن مرضه يقتله؟ القوة الروحية أو المعنوية هي أم الأدوية عند الأطباء في جميع الأمراض البدنية، وإذا أريد الشفاء فإنه يناله الإنسان، فكيف تصلح الأمة الإسلامية، ومعظم أبنائها يظنون أن صلاحهم لا يمكن بيد أي شيئ، وكيف يمكنهم الرقي والتقدم ومواكبة أهل الغرب حذوا بحذو حال أنهم يعتقدون أن الكفة لأهل الغرب فهم كالأقران الذين كان يبطش بهم علي رضي الله عنه في وقائعه فقد سمعت له في صفين أربع مائة تكبيرة، وكانت عادته أنه يكبر كلما صرع قرنا فقيل له في ذلك فأجاب: "كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني

قاتله فكنت أنا ونفسه عليه". فالمسلمون اليوم يعتقدون أنهم سينهزمون في كل معركة تنشب بينهم وبين أقرانهم (الغرب)، ورسخ ذلك في أذهانهم وخاصة في أذهان تلك الطبقة التي تدعي لنفسها أنها طبقة مفكرة ماقلة مولعة بالحقائق الصادفة عن الخيالات بزعمها فإنها قد جعلت تهتف بهذه القاعدة المشئومة في الجلوة والخلوة، وتحسب أن هذا التشاؤم دليل على العقل واتساع الإدراك، وأن القنوط من صلاح المسلمين هو ما يقتضيه العلم، فصار العجز ثابتا في معظم أبناء الأمة. هذه الطائفة تقول في جانب بأن المسلمون اليوم يمرون بأوضاع قاسية، وأصابهم البؤس والتردي، حتى لا يمكن المقارنة بينها وبين الغرب، كما أنها تدعي أنه من المستحيل والعبث مواكبة المسلمين للغرب ومحاذاتهم في العلوم والصناعات والتجارات والنظام العالمي، كأن الغرب لم يخلقوا من الطين الذي خلق منه المسلمون. ليس علو الغرب مكتوبا في اللوح المحفوظ ولم يجف به القلم، ولا يظن أنهم سفلة أمام الغرب، لا، ليس كذلك. ولغلبة آفه الذل والاستخذاء لا يتعظ صغار النفوس بالتاريخ، وصار الغرب يرجو الحالة الروحية الموافقة لمصالحة الاستعمارية في المسلمين إحساسا بما عندهم منها، وبث مثل هذه النظريات بين المسلمين لم يكن معيبا مقبحا للأفرنج لأن طريق الاستعمار يتمهد بذلك، ويحصل لهم التفوق دون أي كد، والأسف للمسلمين على اتصافهم بالعز والأنفة والرجولة كيف ينقادون لهذه الأضاليل التي مآلها عبوديتهم للأجانب، لقد صدق فيهم قول الله تعالى: "وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين"[1]. وعدم قابلية المسلمين عندهم هو استحالة قيامهم بالمشروعات العمرانية والأعمال المادية وكل ما يتعلق به من حساب ورقم أو مساحة وقياس، فإذا قيل لهم: كيف تنشأ من أيدي المسلمين آثار باهرة لا تزال مرجع السائحين، وكيف شيدوا مباني ومؤسسات تبهر العقول وتدهش النفوس، وكيف أنشأوا مصانع ومعامل، كيف أمكن كل ذلك إن لم يكونوا يستطيعون إحسان العلوم، فكان جوابهم غير ما تسأل إذ يقولون: إن كل ذلك كان قبل رقي الغرب الحديث واكتشافه العلوم الحديثة، ونحن نقول إن الطريق الذي سلكه الغرب سهل لكل من يريده، والمسلمون عندما يتقنون العلوم العصرية أمكنهم لا

---

[1] يراجع للتفصيل لماذا تأخر المسلمون ص:١٣٨-١٤٥.

محالة إنجاز كل ما يقوم به الغرب، وليس ههنا فرق في الكفاءة البشرية، والمطلوب فقط الجد والجهد والخروج عن الخمول والتوصل إلى أسباب شقائهم، وتقول التجارب: إن المسلمون كلما عملوا بذلك تيسر لهم أكثر مما تيسرللغرب، ومن أمثلة ذلك أن الملك العثماني السلطان عبد الحميد الثاني حينما أزمع على مد سكة حديدية من دمشق إلى الحرمين الشريفين فضحك بعض الناس وعدوا ذلك نوعا من المستحيل قائلين: كيف نمد سكة حديدية على مسافة تزيد عن ألفي كلو متر ونحن لا نستطيع أن ننشئ طرق عجلات، هذا تشاؤم المسلمين، والمهندس الألماني الذي عين لهذا المشروع كان يعده مستحيلا كذلك، وكان يقول: إذا فرض أن قدرا كبيرا من المال وجد لهذا المشروع فإن هناك موانع طبيعية لا يمكن التغلب عليها فإن الماء لازم للسكة في كل محطة، وهو لا يوجد في تلك الجهة إلا في محطات معدودة، وإذا أنشئت صهاريج الماء، لم يؤمن أن الحرارة في الصيف تنشف بشدتها مياهها، وهناك صعوبة أخرى وهي أن السكة تمتد في أمكنة كلها رمال تهب عليها رياح عاصفة فستكون السكة مغطاة بالرمال، وهناك صعوبات أخرى ذكرها ذلك المهندس، ولكن كلها يمكن تذليلها إذا عزمنا على إنشاء السكة، هذا ما يراه الأمير شكيب، وقد قرض قصيدة حث فيها الأمة المسلمة على التبرع لهذا المشروع، وتبرع هو نفسه أيضا، وذكر فوائد هذه السكة الاقتصادية والعمرانية والعسكرية، وحينما قرض هذه القصيدة استهزأ به الناس وسلقه كثير من "عقلاء" هذه الأمة بألسنتهم "اللطاف" كأنه ارتكب جريمة شفعاء أو قد كفر بحثه على التبرع لهذا المشروع وتنويهه بإنجازه، ولكن استهزاءات الناس ذهبت سدى، ونجز مشروع السكة من دمشق إلى المدينة المنورة (بمسافة ١٤٠٠ك.م) ولم يتم إلى مكة المكرمة (بمسافة ٢٠٠٠ك.م) لخلع السلطان ونشوب الحرب العامة، فهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن استقصاؤها من كثرتها. يظن المسلمون أنهم كما لا يقدرون على إحسان شيئ في العمران كذلك لا يستطيعون أن يحسنوا شيئا في مجال الاقتصاد، ويظن أن كل مشروع اقتصادي يحبط إن لم يعين له رجل أفرنجي، وظل هذا الظن راسخا في أذهانهم فلم يبق في بلادهم شيئ اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي

الأفرنج أو اليهود حتى لو دعي إلى إنشاء مؤسسة اقتصادية أو شركة تجارية أو صناعية لم يدخلها أحد المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد إنجليزي أو يهودي.

يقول الأمير شكيب: "وقد بقي اليهود والأفرنجة يتمتعون بخيرات بلاد الإسلام قرونا وحقبا طوالا دون مزاحم ولا مراغم ويستدرون فيها أخلاف كل صنعة، وليسورون زناد كل مرفق إلا ما ليس له بال حتى ولو قعد ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة، وكأن السلمين لم يوجدوا في الدنيا إلا عملة أو أكرة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم.

وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الأجانب يركضون فيه جياد قرائحهم وعزائمهم، ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلع لمزيد، وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم. وقد يكثر التحدث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التي كان أهل الإسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الخب في الحلبات الاقتصادية إلى أن نبغ في مصر محمد طلعت باشا حرب، فكان في هذا الباب أمة وحده، وأدرك بواسع عقله وثاقب فكره أن ليس في هذا الموضوع شيئ يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذر وجود أدواته عندهم، وأن قصورهم فيه عن مباراة الأجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم الذي هو أنهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد، وقد وجدت عند هذا الرجل في جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همة بعيدة قعساء ونزعة وطنية صافية من الأقذاء، سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ بالشرق بنهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب وثبات الأجانب ومما يذر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع، وهما قد انتظما جنبا إلى جنب في دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خياله مساعدة له على الأقدام نحو المشروعات التي هي مظان الأرباح، وكانت دقة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحها. وبالاختصار اقتحم طلعت باشا حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي[1].

---

[1] المصدر السابق ص:١٤٨-١٤٩.

المسلمون ينهضون بمثل ما نهض غيرهم (مقال رائع لأمير البيان):

"إن الواجب على المسلمين – لينهضوا ويتقدموا ويتعرجوا في مصاعد المجد ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم – هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر الله به في كتابه مرارا عديدة، وهو ما يسمونه الآن بالتضحية، فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية، وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران أو غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن أني سأجيبه أن مفتاح الرقي هو قراءة نظريات (اينشتين) في النسبية مثلا، أو درس أشعة (رونتجين)، أو ميكروبات (باستور)، أو التعويل في اللاسلكى على التموجات الصغيرة أكثر من الكبيرة، أو درس اختراعات (اديسون)، وأن سبب حادثة المنطاد الإنكليزي الذي سقط أخيرا واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وإنما بالهيدروجين، والحال في الهيدروجين – وإن كان أخف في الوزن – قابل للاشتعال، وأنه لا خوف من اشتعال الهليوم وإن كان أثقل شيئا من الهيدروجين وأشبه ذلك. والحقيقة أن هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول، وأنها نتائج لا مقدمات، وأن التضحية، أو الجهاد بالمال والنفس هو العلو الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ودنت منها جميع القطوف والمجاني. وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالما بعملها حتى يكون عالما بالاحتياج إليها. قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني:

"إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء، فإذا مرض ابنه اختار له أحذق الأطباء، وعلم أن هناك شيئا نافعا هو العلم لا يعلم هو شيئا منه، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري". ولم يكن محمد علي عالما وربما كان أميا، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذي هو العقل السليم والإرادة، وهو الذي يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم وحمل الأمة عليها.

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي يعوزنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال، فلننفض غبار اليأس ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان التي هي في القرآن: والذين جاهدوا فيها لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين[1]

أسباب انحطاط المسلمين عند رشيد رضا المصري

١- الجهل بالدين

والجهل- كما هو معلوم- آفة الآفات وعلة العلل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: وجماع الشر الجهل والظلم قَالَ الله تعالَى {وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} (الأحزاب: ٧٢)، وما أصاب أمة إلا أتى عليها، وما ضلت الإنسانية وشقيت إلا بجهلها.

ويقول تعالى {هو الذِي ينزل على عبده آيات بينات لِيخرِجكم مِن الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم} (الحديد:٩) يقول ابن كثير: يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين.

أما الطريق إلى دفع الجهل فهو ولاشك العلم.. يقول الشيخ محمد توفيق البكري:... العلم هو العلة التي تقوى بها أمة على أمة، والجهل هو سبب انحطاط فريق عن فريق، وان سبب انحطاط الأمم الإسلامية هو الجهل وينقل عن ديدرو الفيلسوف والكاتب الفرنسي قوله: علة العلل في ارتقاء أو انحطاط الأمم هو العلم أو الجهل، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية وعلل جزئية ترجع إلى تلك العلة الأصلية[2].

٢- شيوع التقليد والجمود

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ص:١٦٣-١٦٤. (شكيب أرسلان: ١١/نوفمبر ١٩٣٠م).

[2] المنار ٥/٦٠١

والتقليد كما قال علماء الأصول: هو قبول قول القائل وهو لا يدري مستنده، وذهب بعضهم إلى أن التقليد: قبول قول القائل بلا حجة. وهو بمعنى آخر محاكاة الآخر سواء في فكره ومعتقده أو سلوكه وخلقه أو عاداته وأعرافه بلا تعقل.

ولقد انتشر التقليد بهذا المعنى بين المسلمين انتشار النار في الهشيم، فلم يقف عند حد ولم يكتف بميدان، بل اكتسح حياة الشرق قاطبة، حتى أصبح التقليد والمحاكاة سمة الشرقيين وعنوانهم، حتى شمل العقائد والأفكار والسلوك والأخلاق والمعاملات والآداب والعوائد والأعراف...الخ. يقول الشيخ رشيد رضا: يعلم الناظرون فيما نكتب أن التشبه بالأوروبيين في أزيائهم وعاداتهم قد جرى في الشرق جريان الدم في العروق، فأبناء الدنيا يرون في ذلك شرفا ورفعة، والمنتصرون للدين يرونه ذنبا وبدعة، وغلوا في ذلك حتى ذموا تقليد المخالف في كل شيء وإن كان نافعا مفيدا، ولكن لما كان الأمراء والكبراء يتفاخرون ويتبارون في التشبه بالإفرنج، وهم موضع إجلال الدهماء وتعظيمهم، صار سائر الناس يقلدهم في ذلك؛ لأن ناموس التقليد مطرد باحتذاء لهازم الناس وأدنائهم مِثال عليتهم وكبرائهم، وسرت العدوى في ذلك لبيوت العلماء ورجال الدين[1].

التجديد: الحاجة إليه وأنواعه وو سائله:

ولقد أهاب أصحاب المنار بالأمة إلى التجديد في كل أمور الحياة الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية والتربوية...الخ، فالتجديد سنة من سنن الاجتماع، كما أن التجديد من مقتضى الفطرة والطباع. بيّن الشيخ رشيد رضا فقال: التجديد الاجتماعي والسياسي والمدني والديني كل منها حاجة من حاجات الجماعات البشرية بمقتضى غرائزها واستعداد نوعها به يرتقون في مدارج العمران ويصعدون في معارج العلم والعرفان، حتى إن الدين الإلهي الذي يستند إلى وحي الرب الحكيم بمحض فضله، لبعض من أعدَّ أرواحهم القدسية لذلك من أصفياء خلقه قد سار مع غرائز الجماعات البشرية في ترقيها من طور إلى طور حتى أكمله تعالى لهم بالإسلام. ومع هذا الإكمال يروي لنا المحدثون

---

[1] المنار ٥٥١/١

عن خاتم النبيين- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين- أنه قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود في سننه) والمراد بتجديد الدين تجديد هدايته، وبيان حقيقته وحقيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع والغلو فيه أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في شريعته.هذه حقيقة معنى التجدد والتجديد، وهي تهدينا إلى أن لكل من الجديد والقديم محلا، وأن من الجهل تفضيل أحدهما على الآخر مطلقا[١].

ويعني التجديد الديني الرجوع بالدين إلى سهولته وهدايته كما كان في الصدر الأول، وجمع كلمة المسلمين على ما أجمعوا عليه قبل التفرق والاختلاف، وجعل ما عدا القطعي منه مما يعذر فيه كل فرد باجتهاده وكل مقلد باتباع المذهب أو العالم الذي وثق بعلمه، من غير تعصب يفرق الأمة الواحدة إلى شيع وفرق يعادي بعضها بعضا. ومن وسائل التجديد إحياء اللغة العربية بالكلام والكتابة والخطابة وتأليف الكتب بالأساليب العصرية السهلة وتعميم التعليم والتربية على القواعد الفنية، ونشر الدعاية الإسلامية في العالم. وإذا كانت الأمة تحتاج إلى التجديد في إقامة أمر دينها وقد أكمله الله تعالى لها وحظر عليها الابتداع فيه، فهي أحوج إلى التجديد في أمور الدنيا التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان والمكان وعرف الناس، والشرع يراعي ذلك كله كما هو مقرر في كتب الفقه.

والتجديد فيها نوعان: نوع يتعلق بالمصالح العامة وما تحتاج إليه من التشريع، وقد حث الشارع على التجديد في هذا النوع بقوله (صلى الله عليه وسلم) «من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء» (رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله).

والنوع الثاني ما هو من أمور المعايش كالزراعة والصناعة والتجارة وأمور العادات التي ليس فيها مفسدة، وقد وكله الشارع إلى تجارب الناس، وفي هذا قال (صلى الله عليه وسلم) «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (رواه مسلم من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما)

---

[١] المنار ٣٢/٤٩

وقال «إذا كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإليّ» (صحيح ابن حبان). وجملة القول أن التجديد المشروع يشمل كل ما تعتز به الأمة والدولة من العلوم والفنون والصناعات والنظم المالية والإدارية والعسكرية والمنشآت البرية والبحرية والجوية، فكل ذلك يعد في الإسلام من فروض الكفايات التي تأثم الأمة كلها بتركها، والشرع لا يقيدها فيها إلا باجتناب الضرر والضرار والظلم، ومنه استغلال حاجة المعسر بأخذ الربا منه، مع قواعد إباحة الضرورات للمحظورات وتقديرها بقدرها، ومراعاة الحق والعدل[١].

٣- آفة الاتكالية

كما رد بعض كتاب المنار أسباب الانحطاط والتخلف بين المسلمين إلى آفة الاتكال والاعتماد على الآخر. ولقد قسم محمد كرد الدمشقي الأمم من حيث كيانها إلى قسمين: استقلالية واتكالية، فالأمة الاستقلالية هي التي طُبعت على حب الانفراد، يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة. ومثالها الشعوب الإنكليزية السكسونية. والأمم الاتكالية هي التي يعتمد أفرادها على مجموعها من الأمة أو الدولة، فيتوكأ كل فرد على غيره، وأعظم مثال لها الأمم الشرقية حاشا سيدتها الأمة اليابانية العظيمة؛ فإن التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هياكلها، وأبناؤها أبعد المشارقة عن النشأة الاتكالية[٢].

أصول النهضة الإسلامية:

على قدر استعداد الأمم نفسيا وفكريا واجتماعيا ودينيا لقبول الزعماء والمصلحين تكون الثمرة والنتيجة. يقول الإمام محمد عبده: إذا وجد الاستعداد والزعيم معا لنهضت الأمة من كَبْوتها وحيت حياتها الطيبة ولفارقها الشقاء، وزال عنها ما نزل بها من البلاء، لم تفقد الأمة الإسلامية استعدادها للعمل فقدا تاما؛ إذ هي لا تخلو من استعداد لقبول دعوة الخير إلى حد ما وإلا لكانت شرا محضا. ولا يوجد في الكون محض شر، وإلا لزال على

---

[١] المنار ٢٢٦/٣٢

[٢] المنار المجلد ٤- الجزء ١٦- الصفحة ٦٠١

الفور. وإنما ترفض الأمة الضعيفة الاستعداد لدعوة الحق ولا تلبيها في وقتها لقصر في النظر وقلة في الفهم، وضعف في القلب، وليست معذورة في ترك العمل لضعف استعدادها وحرمانها من الزعيم أو الزعماء كما تقدم، فإن ذلك الضعف، وذلك الحرمان منها وهي التي ولدتهما كما تلد الأم ولدها. ألا إن الاستعداد لا يوجد في الأمة من نفسه ولا يوهب لها كما يوهب المتاع، ولكن الأمة هي التي توجده بتمهيد الأسباب له كما أن وجود الزعماء تابع لحركة الحياة فيها، فهم أبناؤها، وهي التي تلدهم، فالأمة هي التي توجد استعدادها كما تلد زعماءها، وقد يكون الزعيم موجودًا وهي لا تراه لعلة في باصرتها أو بصيرتها، فإذا زالت العلة بتقوية الاستعداد للإصلاح والتوجه لطلبه وجدته بين يديها وأمام عينيها.

التضحية

لاشك أن التضحية بالمال والنفس وما دونهما هو طريق النهضة الحقة؛ فلا نهوض إلا بدماء وأشلاء وبذل الغالي والنفيس في سبيل المبدأ. وهذه هي سنة اجتماعية كائنة وباقية في كل زمان ومكان، بل في كل أمة. يقول شكيب أرسلان: إن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مرارا عديدة وهو ما يسمونه اليوم بالتضحية، فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية.

أهمية التربية

لا يختلف اثنان على أن التربية الصحيحة من أهم مقومات النهضة لأي أمة فبدونها لا تستطيع الأمة البقاء والصمود طويلا إذ سرعان ما تنهار قواها وتفقد هويتها ومناعتها أمام كل وافد أو جديد، وهذا هو ما حدث للأمة الإسلامية في العصر الحديث حيث أصبحت مرتعا خصبا لكل التيارات الوافدة بلا تمييز بين الغث والسمين يقول الأستاذ الإمام: إن الإنسان لا يكون إنسانًا حقيقيًا إلا بالتربية، وليست هي إلا عبارة عن

اتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحِكَم والتعاليم، وهي عبارة عن السعادة الحقيقية، تعلم الإنسان الصدق والأمانة ومحبة نفسه، فإذا تربى أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.

إذا تربى الإنسان أحس في نفسه أنه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا إلا بأنه شقي بوجود غيره، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح، وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة المولدة للوساوس والأوهام، ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان[1].

أسباب انتصار وفلاح الأمم عند العلماء المعاصرين:

يمكن القول أنّ عناصر انتصار الأمم تكمن بصورة عامة في ثلاثة عناصر رئيسية وهي كالأتي : ١ــ الزّعماء العادلون مع القيادات الحكيمة. ٢ــ كثرة العلماء الأفاضل. ٣ــ التزام الأمة بالأخلاق الكريمة. بالإضافة إلى الاعتماد على الله وعلى أسباب النصر الأخرى المعروفة من العدد والعدة والتكنولوجيا والديلوماسية والسياسة الماهرة والاقتصاد القوي وخدع الحروب (تكتيكات الحروب).

أما أسباب إنتصارات الأمم الإسلامية فتكمن أيضاً في ثلاثة أسباب أساسية وهي كالأتي:

١ــ التمسك بالقرآن والسنة بصدق وإخلاص فقال (ص) في حديث صحيح (تركتُ فيكم آمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسُنة نبيّه) أخرجه الحاكم في المستدرك.

٢ــ التطبيق الصحيح للقرآن والسنة، ولأجل التطبيق الصّحيح كما نعلم أن هذا يحتاج إلى علماء وأمراء صالحون لأجل التوضيح والتفسير والإفتاء الصحيح، ولتنفيذ أحكامها يحتاج إلى أمراء عادلين، فقال (ص) (صنفان من النّاس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء) رواه أبونعيم في الحلية. (أفة الدّين ثلاثة: فقيهٌ فاجرٌ وإمامٌ جائرٌ ومجتهدٌ جاهلٌ) في الجامع الكبير رواه الدّيلمي عن ابن عبّاس. (سيكون أمراء فسقة فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولستُ منه ولن يردعلى الحوض) رواه

---

[1] المنار ٢٢٤/١٩

أحمد والنسائي والترمذي والبزاز. (لاتزال الأمة على شريعةٍ ما لم يظهر فيها ثلاث: مالم يقبض منهم العلم، ويكثر فيهم الخبث، وتظهر فيهم السّقارة. قالوا وما السّقارة يا رسول الله؟ قال بشرٌ يكونون في آخر الزّمان تحيّتهم بينهم إذا تلاقوا التّلاعُنُ) حديث عن سهل بن معاذ عن أبيهِ. ومثل ذلك يمكن القول إنّ احترام وتقدير العلماء والأمراء الطّيبين والمخلصين وحمايتهم واجب إسلامي، وإن وجدوا فيهم بعض الأخطاء الغير العقائدية، وإذا أخطأوا في أمور دنيوية دون قصد فلهم أجر واحد لأن الرسول (ص) يقول (كل إبن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون)، وهناك قاعدة فقهية يقول للمجتهدين (إن أَصَابُوا فَلهم أَجرَان وَإنْ أخطئوا فَلَهم أَجْرٌ وَاحِدٌ)، ثمّ إنّ احترام العلماء والأمراء الصالحين من أمور الدين ويعتبرون من أولي الأمر فيلزم طاعتهم، قال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، لأن بدون قائد لا يمكن أن تنتصر الأمم. وعلينا أيضاً أن نبتعد عن صفة ذميمة وهو تكفير العلماء والأمراء المسلمين دون تحقيق مسبق عن شخصيتهم وأن لا نحكم عليهعم بمجرد قول رجل فاسق، قال تعالى (وإن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا).

٣ــ قوة إرادة وإيمان المسلمين دون خوفهم لومة لائم: يسيطرون على قوة الغضب والشهوة والمال ويصبرون على الأذى والجوع ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، بالإضافة إلى توحيد صفوفهم وكلمتهم.

لقد طبقت الأسباب الثلاثة بكاملها في عصر نبينا محمد (ص) ثم في عهد الخلفاء الراشدين. ولكن بعد إستلام الأمويين الحكم وما بعدهم الدولة العباسية والسلجوقية والعثمانية، فقد المسلمون شيئاً فشيئاً بعض هذه الأسباب، إلى أن إستلمت إرادة الحكم حكام ضعفاء وفسقة ومنافقين وغير مؤهلين للحكم بسبب تطبق الحكم الوراثي الأعمى، وهكذا هُزمت أمام الأعداء. يمكن أن نقول أيضاً أنه بعد سقوط الدّولة العثمانية والخلافة الإسلامية، فقدنا أيضاً تمزق الأمة إلى أمم والدولة الواحد إلى دول كثيرة، وفقدنا أرضنا ووطنا وإستقلالنا وحرياتنا. وبالتحديد فقدنا الخلافة العثمانية بعد خلع أخر سلاطين الدولة العثمانية "السلطان عبد الحميد الثاني"و تمّ تعيين حكام عملاء للدول المستعمرة، فقتلوا وسجنوا وعزلوا الحكام والعلماء الصالحون ثمّ جلبوا بدلاً منهم علماء منافقون وفسقة

بعيدون عن كافة المبادئ السامية إلى مناصب هؤلاء الطيبين. والقوى الإستعمارية الشريرة الكبرى لم تكتف بهذا بل فكّروا وخططوا وسعوا بكل ما بوسعهم من أجل تدمير كافة أسباب نجاح ونصر المسلمين، ومن أهم أسبابها هو إبعاد المسلمين عن دينهم، مع تمزيق وحدة صفوفهم، وإبعاد مفهوم الجهاد عن دينهم، وحتى تمزيق مفهم الأسرة السعيدة والرجل الصالح والمرأة الصالحة. ويمكن القول أنهم حققوا نجاحاً باهراً في كل ذلك هذه الأمور. والدليل على ذلك يمكن أن يلتمس كل ذلك أي إنسان منصف، فأنظر عن العلاقات والروابط الزوجية بين العوائل في السابق وفي الحاضر، وكيف أنّ الأزواج في صراع دائم مع ابعضهم وعائلهم ، وأنظر أيضاً العلاقات السيئة بين الأباء والأبناء. وأنظر إلى الحكام الذين سكتوا عن توليهم وظلمهم لهم، وأنظر إلى فتاوى العلماء الخاطئة والمضحكة والذين يفتون لأجل إرضاء حكامهم فقط دون إرضاء الله تعالى، وأنظر أيضاً كيف أنّ الأفراد بدؤا لا يثقون بأصدقاهم، والتاجر لا يثق بتاجر، وجار لا يسلم على جاره ولا يزور مرضاه وموتاه. بالإضافة إلى زيادة أمكان الدعارة والفحش والخمور وسياحة السواحل على شوطيء البحار والأنهار وخروجهم بمظاهر لا يليق المسلمين، ويمكن زيادة الأمثلة. وهكذا يمكن القول أنه قد زالت أسباب النصر عند المسلمين وأصبحوا أذلاء أمام الأعداء في كافة معاركهم. ولكننا متفائلون كثيراً لقد أفاق المسلمون وإسيقظوا من سباتهم وازدادت وعيهم الديني، في نهاية القرن التاسع ونلتمس هذا بشكل بارز في كافة الدول الإسلامية، وهذا يبشرنا بالخير وإن شاء الله ستكون راية حضارة الأمم بأيدي المسلمين في أوائل القرن العشرين من جديد. ولكن عليهم بزديادة تقواهم وبالسعي الكثير وأخذ كافة أسباب النجاح والنصر لأجل الرقي والأزدهار بأذن الله تعالى. ونحن نعلم أنّ كل منصف وعاقل منا يتألم ويتحسر على حال المسلمين، ويفكر في إنقاذ دولته والدول الإسلامية الأخرى من يد الأعداء والظالمين والمنافقين، ويفكر في إستقلالية أمته بصورة مباشرة وأن يعيش حراً آمناً مطمئناً غنياً ومرفوع الرأس. ويمكن أن نذكر هنا أنّ أطول حكم إسلامي هو الحكم العثماني التي إستمر أكثر ٦ قرون بسبب عدالتهم الفائقة وعدم ظلمهم الشعوب التي تحت رعايتهم وبتقوى حكامهم بصورة عامة. أما فيما بعد سقوط

الدولة العثمانية فقدنا حكم الأمة بالدستور الإلهي وفقدنا كذلك أكثر العلماء وحتى أكثر الشعوب الطيبة، بالقتل والتهجير والتعذيب والسجن كما ذكرت. فقال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)، وعليهم أن لا يلوموا غيرهم من الظالمين والمنافقين، لأن الأعداء يعملون عملهم العدائي بجد وإخلاص، ولو فعلنا نحن عملنا بجد وإخلاص مثلهم في إنقاذ الشعوب من ظلمهم العدائي لأنتصرنا بفضل الله تعالى، لأن الله وملائكته وشفاعة ودعاء نبينا محمد (ص) والمسلمين معهم، لذا فالمسلمون لا يخسرون المعركة أبداً، لأنه عندهم قاعدة إسلامية "إما النصر وإما الشهادة" في كلا الحالتين المسلمون منتصرون.

أسباب انتصار العرب والمسلمين في صدر الإسلام وفتحهم المدن الكثيرة:

١ــ كان العرب والمسلمين أهل الهمة والغيرة والشجاعة والشهامة، لأنهم عاشوا في البادية، وتربوا على هذه التربية الجليلة.

٢ــ كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر، ويؤمنون بالأجل، ولا يخافون لومة لائم، ولا يخافون الجهاد والموت من أجل الله تعالى ومن أجل الإسلام.

٣ــ كانوا يعرفون أساليب الحرب بشكل جيد، فيعرفون المبارزة مع الأعداء، ويعرفون الفروسية والرماية وإستعمال السيوف والرماح بشكل متميز، ويستعملونها بمهارة فائقة، أفضل من أعدائهم الروم والفرس وكفار قريش.

٤ــ ولم يعرفوا الإسراف في أموال البيت، ويعتبرونها حراماً لهم.

٥ــ كان للعرب صفة الصبر والمتانة والتفكر في الحرب، وخدع الحرب من كرّ وفر مع تطويل الحرب وهذا يضعف العدو.

٦ــ ومن عادتهم أنهم عندما كانوا يظنون هزيمتهم في الحرب، فيطلبون المعاونة أو النجدة من القبائل الأخرى.

٧ــ ترك خط الرجعة في الحرب، وحتى باب الصلح كانت عندهم مفتوحة.

٨ــ كثرة الحروب بين الأعداء والتمزق الحاصل بين صفوف الروم والفرس، والفساد الأخلاقي في مجتمعاتهم، مع ظلم الحكام لهم وعدم إعطاء الحرية الكاملة لشعوبهم. كل هذا كان عاملاً مساعداً لإنتصار المسلمين.

٩ــ وجود الموسومين في المملكة الرّومية وحقدهم على الرّوم.

١٠ــ تطبيق المسلمين نظام العدالة والمساواة والحرية والرّفق والتقوى والزهد وعدم الإستبداد والظلم بين كافة الشعوب، مما أدى إلى إنتصارهم.

١١ــ عدم إعتداء المسلمين على العادات والمعاملات والأعراف لشعوب غير مسلمة، وكذلك عدم التدخل في أديانهم الذين ينتمون إليه.

١٢ــ من أهدفهم ومبادئهم السامية إعلاء كلمة الحق وإرضاء الله تعالى مع خدمة البشرية جمعاء، ولم يكن هدفهم منافع الدنيا أبداً. وبذلك إتحد صفوفهم وظهر قياديين حكماء ومتقين مثل: خالد بن الوليد، وسعد بن وقاص، وخالد بن سعيد، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد الطلب، وأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان)[٢٠].

أسباب عدم انتصار المسلمين:

قد يسأل سائل لماذا لا ننتصر الأعداء ما دمنا عباد الرحمن وقوتنا أكثر من قوة الأعداء الإقتصادية والعددية والعقلية والسياسية؟ وقد يكون الجواب: لأننا كمسلمين قد فقدنا الولاء لله تعالى وطاعة أوامره وفقدنا الأخلاق الفاضلة واحترام الأخرين. وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية فكثر الفساد العقائدي والأخلاقي والنفسي والمالي عند أكثر الناس وحتى عند رؤساء وأمراء ووزراء ووكبار شخصيات الدولة بالإضافة إلى عامة الشعوب الإسلامية، وهكذا إزدادت الجرائم والقتل والظلم والزنا والظلم والكذب والإفتراء وشرب الخمور ولعب القمار وإسراف الأموال ونحو ذلك. فكيف يمكن لله تعالى أن ينصرنا ويقبل دعاءنا وأن لا يذلنا عند القوم الكافرين، كما نعلم أنّ الله يقول في لسان نبينا محمد (ص) (الظالم سيفي أنتقم به)، وبعد فعل كل هذه الموبقات ألم نكن ملعونين عند الله؟ كما لعن الله من قبلنا الشياطين ومن الإنس فرعون وهامان ونمرود وقارون وأقوام عاد ولوط وإرم وبني إسرائيل ونحوهم، ألم يحق علينا كذلك غضب الله؟.

هذا هو السبب بالإضافة إلى ذلك أفعالنا تجاوز فسق الأعداء، فأصبحنا من أكذب الأقوام وأشدّ الناس إفراطاً في القومية والمذهبية والطائفية، وأكثر الشعوب حباً للشهوات والمحرمات باستثناء الفئة القليلة من العلماء والأمراء والصالحين من الناس. وحتى تركنا أسباب النجاح والفلاح كما أمرنا الله تعالى وتوكلنا في العلم والصناعة والإنتاج والتكنولوجيا على الأعداء.

وقد تريدون الإثبات على ذلك: أنظروا إلى حال الحكام والوزراء والأمراء وأولادهم وأقاربهم عندما يخرجون إلى خارج بلدهم؟ وأنظر إلى حياتنا اليومية ووضعنا وتعاملنا مع بعضنا في البيت مع الأطفال والأزواج وفي خارج البيت مع الأصدقاء والمجتمع والدولة. فهل نحن أمة موحدة؟ وهل الشعوب الإسلامية تحب بعضها؟ وهل الفساد المالي عندنا أكثر أم أقل من الدول الأوروبية؟ وأسئلة كثيرة يمكن أن نسألها. فأين بقي قول الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة) (وأين بقي قول الرّسول (ص) (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وآيات كثيرة حول الأخلاق الفاضلة.

أفضل حل للانتصار والعيش السعيد بعزة وكرامة هو الالتزام والرّجوع إلى القرآن والسنة، ولا سبيل لغير حكم الشّرع، وأن نواعد الله تعالى بالتوبة وعدم الرّجوع إلى الفساد أبداً، وأن يعفو عنا وينصرنا على أعدائنا وأعداء الله إلى يوم القيامة[١].

أسباب تخلف المسلمين وآثارها وعلاجها عند سليمان بن عمر:

١. سقوط الخلافة ألإسلامية

منذ بزغ فجر هذه الرسالة والخلافة قائمة يتناقلها خليفة عن خليفة وجيل عن جيل، وأمة عن أمة، وأدرك العدو أنه لن تموت هذه الأمة مادام لها أمير للمؤمنين فسلطوا سهامهم وشرعوا أسلحتهم وحاكوا المؤامرات تلو المؤامرات حتى أسقطوا هذه الخلافة.

٢. فصل الدين عن الدولة

---

[١] محاضرة سفر بن عبد الرحمن الحوالي

لا يمكن أن يُحكم البشر إلا بشريعة رب البشر، فإذا أبعدت هذه الشريعة عن الساحة حُكم البشر بسنن البشر، والبشر عاجز وقاصر، وبهذا حل فينا ما حل فينا.

٣. الهزيمة النفسية أمام الأعداء.

وهذه القضية من اخطر ما أدى بنا إلى ما نحن فيه وهي قضية مهمة جدا.

يقول الأمير شكيب أرسلان:"من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على أمة إلا ساقها إلى الفناء".

٤. الجهل وتخلف المسلمين في العلوم الإسلامية والعلوم المادية.

المسلمون أو كثير من المسلمين جهلة في دينهم جهلة في دنياهم ، وهذا سبب أساسي ورئيسي للمرض الذي نعيش فيه، ولداء الذي وصلنا إليه.

إذا الجهل الذي أصابنا، والجهل الذي حل بأمتنا أودى بنا إلى ما نعيشه الآن، ونتجرع كؤوس الذل والهوان اتجاه ذلك و تبعا لذلك.

٥. الإعجاب بالغرب واعتباره القدوة الصالحة.

الإعجاب بالغرب إعجاب يبينه البعض ويبيته البعض الآخر، حتى وصل الإعجاب بالغرب أن يكون الذهاب إلى بلادهم أمنية يتمناها كثير من المسلمين، فيفتخر أنه زار أمريكا، أو زار أوربا أو زار الشرق أو الغرب.

هذه هزيمة نفسية قاتلة، وإعجاب بالغرب وبما عنده، وكذلك يعتبره هو القدوة الصالحة في هذا المجال.

٦. الإفساد بأسم الإصلاح والتطور.

وذلك تضليل للأمة وهذا ما يحكيه سبحانه وتعالى عن المنافقين ويقول عنهم:

(وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون).

بأسم الإصلاح -أيها الأخوة- انتزعت أهم خصائص مؤسسات الأمة الإسلامية.

٧. اجتماع كلمة الأعداء علينا مع تفرقهم وتشتتهم.

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى). ولكنهم يجتمعون علينا.

الخلاف بين روسيا وأمريكا عريق قديم وسيظل طالما استمروا على وضعهم وعلى مبادئهم، ولكنهم يتفقون على ما يكون ضد المسلمين، هذه قضية لا يناقشون فيها أبدا.

٨. الجهود التي بذلها المستشرقون والمستغربون أيضا.

المستغربون هم الذين ذهبوا إلى أوربا وتعلموا في أوربا وأمريكا وغيرها، وجاءوا ليبثوا ولينشروا بيننا ما تعلموه هناك كُمثل لا تقبل النقاش ولا الجدل.

يرجع أمثال طه حسين ويقول:

(علينا أن نلحق بفرنسا بقضها وقضيضها حتى في شكل اللباس).

٩. ضعف القدوات لدى العلماء والقادة.

في السابق كان العلماء وكان القادة هم القدوة التي يقتدى بهم ولكن هذا الجانب ضعف في عصرنا الحاضر، فلم يعد كثير من العلماء أهلا لئن يقتدى بهم.

فقدوا مقومات القدوة، نعم فقدوا مقومات القدوة الصالحة، ولذلك وبسبب ضعف القدوة لدى هؤلاء اقتدى الناس بالمنحرفين. (إذا انفصل العلماء عن الناس، حل بالأمة الهوان).

إذا ضعف القدوة لدى العلماء، أو جانب القدوة لدى العلماء، بحث الناس عن القدوة فلم يجدوها فاقتدوا بالشرق وبالغرب وبمن هب ودب. هذا سبب رئيسي.

١٠. خيانة بعض المسلمين لدينهم ولأمتهم.

نعم أصبحوا عملاء للشرق والغرب، عملاء لأعداء الله فخانوا الله وخانوا الرسول وخانوا أمانتهم وخانوا دينهم.)

١١. نشوء العصبيات والقبليات.

العرب أمة مشتتة مفرقة، جاء الإسلام وهي هكذا حتى جمعتهم ووحدتهم كلمة الإسلام، كلمة لا إلى إلا الله، ودان الشرق والغرب لهذه الكلمة بعد العصبيات وبعد التفرق.

١٢. الجبن والخوف وحب الدنيا وكراهية الموت.

هلع وخوف أدى بنا إلى ما نحن فيه.

ما هي الآثار التي نتجت من تلقاء ذلك ؟

الآثار كثيرة و أوجزها اغتناما للوقت:

الأثر الأول: الانحراف الفكري.

ثانيا: فساد بعض مناهج التعليم.

ثالثا: الخلل الاجتماعي.

رابعا: الفساد الاقتصادي

خامسا: عدم الهيبة أمام الأعداء.

سادسا: التحول من السيادة إلى مؤخرة الأمم.

سابعا: اليأس والقنوط.

ثامنا: انشغال الفرد بمستقبله عن مستقبل أمته.

أنت ذكرت الأسباب وذكرت الآثار، ولكن ما هو العلاج؟

نعترف بهذه الأمراض، نعترف بهذا الواقع ولكن ما هو العلاج، أيضا سأختصر ، وإلا كل موضوع يحتاج إلى محاضرة -أيها الأخوة-.

أول: العودة الصادقة إلى الإسلام.

ثانيا: عليكم بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثا: العزة والاستقلال والتخلص من الهزيمة النفسية.

رابعا: اجتماع كلمة المسلمين، وتعاونهم في ما بينهم.

خامسا: عودة دور العلماء في المجتمع وتسلمهم ذروة القيادة.

سادسا: إصلاح مناهج التعليم، وتطهير وسائل الإعلام من الفساد.

من أهم وسائل العلاج إصلاح مناهج التعليم ووسائل التعليم، وتطهير وسائل الإعلام من الفساد، وسائل إعلام المسلمين مليئة بالفساد، مليئة بالانحطاط من صور النساء ومن غيرها، فلابد من عودة صادقة.

سابعا: التربية الصالحة والاهتمام بالأسرة[1].

أسباب نهضة وانحطاط المسلمين عند الشيخ الندوي

---

[1] محاضرة سليمان بن عمر بعنوان : أسباب تخلف المسلمين

متى بدأ الانحطاط في المسلمين:

الحد الفاصل بين نهضة الأمة المسلمة وانحطاطها هو الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية[١].

أسباب النهضة:

كانت القيادة الإسلامية والعالمية مفوضة إلى رجال كانوا أمثلة حسنة في الإيمان والعقيدة، وحسن العمل والخلق، والتربية وتهذيب النفس، وعلو السيرة، فقد صاغهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بوتقة لم يبق بها عليهم عين ولا أثر لحياتهم الجاهلية التي قضوها قبل مجئ الإسلام، فقد تغيرت ميولهم ووجهات نظرهم، وأساليب فكرهم وعقليتهم، وكانوا جامعين بين الدين والدنيا، فكانوا أئمة المسلمين في الصلوات، وخطباء على المنابر، وقضاة عادلين، وأمناء بيت المال، وقواد الجنود، كانوا رهبان الليل وفقهاء مجتهدين، وأصحاب سياسة وحكم، وكان الخليفة جامعا بين الدين والسياسة، ويلتف حوله رجال تربوا بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده، يستشيرهم الخليفة، ولا ينجز أي عمل دون اقتراح أو مشورة منهم، فسرت روحهم هذه في الحياة العامة كلها، وفي المجتمع كله، وفي نظام الحكم بأسره، فلا صراع بين الروح والمادية، والدين والسياسة، ولا فصل بين الدين والدنيا، ولا نضال بين الطبقات والعصبات[٢]، ولا تنافس في الأهواء والرغبات.

١. فقدان شروط الزعامة الإسلامية:

الجهاد والاجتهاد:

تتطلب الزعامة الإسلامية صفات دقيقة واسعة، تجمعها كلمتا "الجهاد" و "الاجتهاد"، وهاتان كلمتان خفيفتان، ثقيلتان على الميزان، مليئتان بالمعاني.

الجهاد:

---

[١] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص:١٦٤.

[٢] المصدر السابق، ص:١٦٤-١٦٥.

هو بذل أقصى ما في وسع المرء من القوة والوسائل والإمكانيات للظفر بأعز المطالب وأعظمها، فالمسلم أعظم مطالبه الطاعة لله وابتغاء رضوانه والخضوع لحكمه وملكوته وامتثال أوامره، وكل ذلك يتطلب جهادا طويلا، ضد كل ما يحول دون مطلبه من عقائد وطقوس، وأخلاق وأغراض، ورغبات، وأهواء، كما أنه يقتضي كفاحا ضد الآلهة المزاعيم - الداخلية والخارجية - وبث أوامر الله وحكمه في العالم والدعوة إلى رسالته ودينه بالحكمة والموعظة الشفقة على الخلق، وذلك لأنه ربما يصير التدين والطاعة الشخصية صعبا إذا لم تستتب البيئة، وذلك ما عبر عنه في القرآن الكريم بـــ"الفتنة"، فكل ما في الكون من جماد وبنات، وحيوان وإنسان، تابع لمشيئته، خاضع لقوانينه الطبيعية، يقول الله تبارك وتعالى: وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون.

فجهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء، وهم مأمورون بإعلائها فهذا الجهاد يستمر إلى يوم القيامة، وله أنواع وأشكال، منها القتال وغايته ألا يبقى ضد الإسلام أي قوة، ولا حريف تجذب الطبائع إلى نفسه فيحدث بين الكفر والإسلام صراع، كما أنه يتعين عليه الاطلاع على الكفر والجاهلية اللذين يجاهد ضدهما ليعرف كليهما مهما برز، وفي أي مظهر ظهر أمامه. فسعة الاطلاع على الكفر والجاهلية واجبة على من يقود الجيش الإسلامي ويزحف به للجهاد ضدهما، وليست واجبة على العامة من المسلمين، كما أنه يجب أن يكون أصحاب القيادة والجهاد في عداد كامل وعدة كاملة، ويقاتلوا الكفر بكل ما يتيسر لهم من إمكانيات وأجهزة حديثة، مصداقا لقوله سبحانه: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم".

الاجتهاد:

المراد به أن يكون أصحاب القيادة والسيادة من المسلمين قادرين على القضاء الصحيح في القضايا والمشاكل التي تحدث في الحياة، ويكون لهم اطلاع على روح الإسلام والتشريع الإسلامي قدرما يستطيعون به استنباط المسائل وحل المشاكل والنوازل التي تنزل بالأمة وإرشادها إلى ماهو الخير الصالح ساعة التحير والاندهاش، وأن يكونوا

أصحاب ذكاء وعلم، وجد وجهد فيستخدموا كل ما فطر الله في هذا الكون من قوى طبيعية، ومنابع ثروة وخزائن، لصالح الإسلام ولتحقيق هدفه ورسالته.

٢. الملوكية بعد الخلافة الراشدة:

بعد انتهاء الخلافة الراشدة تولى حكم العالم الإسلامي رجال لم يكونوا متربين بالتربية الحسنة، ولم يكن مستواهم الديني، والروحي، الخلقي أرفع إلى حد أن يكون جديرا بقواد الأمة الإسلامية، ولم تكن أذهانهم وطبائعهم متحرره من البيئة الجاهلية، فليس فيهم روح جهاد، ولا قوة اجتهاد، وهما من العناصر الأساسية اللازمة لكل من يريد قيادة الأمة المسلمة، وليس في خلفاء بني أمية وبني عباس أحد يتصف بما قلنا إلا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وأدى ذلك إلى أن حدثت ثلمات في الدين، نذكرها فيما يلي:

أ- فصل الدين عن السياسة وذلك لأن الخلفاء الأمويين والعباسيين لم يكونوا بالغين من العلم والدين مبلغا لا تمسهم به حاجة إلى العلماء الربانيين، فإنهم وضعوا الحكم في أيديهم من غير أن يشركهم فيه أحد، فانفصلت بذلك السياسة عن الدين، وأما أهل العلم والدين فهم بين مناقض للخلافة، خارج عليها، وبين منفصل عن الحياة السياسية، وبين مساعد لها لمصلحة دينية، ومصلح لها قدر وسعه، فلذا حدث الفصل بين الدين والسياسة عملا ولو لم يكن اعتقادا.

ب- أعضاء الحكومة بل الخلفاء أيضا لم يكونوا أسوة في الدين والخلق، بل كان عدد منهم متصفا بالميول الجاهلية، وذلك ما كان يلقي أثرا بالغا في حياة العامة من الناس، فكانوا يقلدونهم، من غير خوف لومة لائم، ومن غير أن يكون عليهم مراقب، ولم يبق فيهم روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاحتساب على الله، فدبت الجاهلية في حياتهم مرة أخرى، وعم التنعم والرفاهة، وانتشرت أسباب التسلية، والتلذذ، وتحقيق منى النفس وأهوائها، وازداد الحنين إلى ملذات الحياة، وأصابهم الانحطاط الخلقي والديني، ونسوا وظيفتهم الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبليغ رسالة الإسلام إلى غير المسلمين، والتذكير بالله ويوم الدين.

ت- هؤلاء الناس لم يكونوا ممثلين بأعمالهم للإسلام سياسته الشرعية، ونظامه وتعاليمه، فخرج بذلك تعظيم رسالة الإسلام، وتأثيرها، والثقة بها، فيقول مؤرخ أوربي: "بدأ انحطاط الإسلام لأن غير المسلمين بدأوا يشكون في صدق أولئك الذين كانوا يمثلون الإسلام".

٣. الاعتناء بالفلسفة دون العلوم الدينية:

وفي هذا العصر لم يحتفل العلماء والمفكرون من المسلمين بالعلوم الدينية والعملية المفيدة قدر ما احتفلوا بإلهيات اليونان وفلسفتهم، وإن كانت في الأصل علم الأصنام الذي وضعوا له عنوان الفلسفة، ولم تكن في الواقع إلا مجموعة الكلمات والقياسات التي ليس وراءها أي حققة، وكان المسلمون بفضل الله سبحانه مستغنين عن ذلك، ولم يكونوا بحاجة إلى تحليل صفات الله وذاته كما يفعل الفلاسفة، بما أن الله تعالى أعطاهم علما يقينيا بصفات الله سبحانه وذاته عن طريق النبوة، ولكن الناس لم يقدروا هذه النعمة واشتغلوا بمباحث لم تكن تغني عنهم شيئا، وبذلوا كل طاقاتهم وجهودهم فيها، ولم يجدوا لذلك فرصة إلى الاشتغال بعلوم تضمن لهم تسخير القوى الطبيعية وإخضاعها لصالح الإسلام.

٤. الضلالات والبدع:

وجعلت تدب المعتقدات الجاهلية والبدع والضلالات في حياة المسلمين فشغلتهم عن الدين الصحيح وعن الدنيا، والمسلمون يمتازون عن غيرهم بالدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وميزته في صحته، فإذا تدخلت عقول الناس وأعمالهم فيه لم تبق له هذه الميزة.

قيادة العالم

نجح صلاح الدين في مهمته، لكن من بعده عاد المسلمون إلي سيرتهم الأولي من تفرق وتنافس وانقسام، لكنهم رغم انحرافهم كانوا أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية في انتشارها

وازدهارها، ولم تزل تضعف قوة المسلمين حتى جاءت الضربة القاضية علي يد المغول وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم.

في ذلك الوقت ظهر الترك العثمانيون فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل في نفوس المسلمين، وكان فتح القسطنطينية دليلا علي كفائتهم وقوتهم، لكن من سوء حظ المسلمين ان أخذ الترك في التدهور بعد سنوات قليلة بسبب استبداد الملوك وجورهم، وإخلاد الشعب إلي الدعة والراحة، والجمود العلمي الذي أصاب الحياة.

وعندها استيقظت أوروبا من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل، وظهر بها علماء ومبتكرون في شتى المجالات، فكانت جديرة بتحول قيادة العالم إليها.

الجمود العلمى في تركيا :

وقد وصفت الكاتبة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمي في تركيا وصفاً يحسن بنا أن ننقله هنا قالت :

"ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام في تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به ، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة في ذلك الزمان ، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة فأحدث انقلاباً في العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين . كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان في القرن الثالث عشر المسيحي لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم ، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمي إلى القرن التاسع عشر المسيحي".

"إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين في شيء ، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذي كان عند المسلمين أو النصارى ، إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق ، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذي كان فيلسوفاً وثنياً ، ويجدر بي في هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين والمسلمين".

"لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعي ، والقسط الأوفى في تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية ، ومقصوده الأكبر فصل ما بين الحسن والقبيح والخير والشر ، إنه جاء بشريعة للعالم ، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تعقداً أو إشكالاً ، إن أساس تعليمه التوحيد ، فكان الإسلام ديناً سمحاً بسيطاً ، وهو أفسح صدراً للنظريات الجديدة عن العالم الطبعي من الأديان الأخرى بكثير ، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التي كانت تساعد في التحقيق العلمي الجديد لم تطل مدتها في حياة المسلمين . قيد العلماء والمتكلمون في القرن التاسع الهجري الإلهيات- فضلاً عن الفقه- بسلاسل وقيود ، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد ، في ذلك الوقت تغلغلت أفكار أرسطاطاليس في الفلسفة الإسلامية".

"بالعكس من ذلك الدين المسيحي- الذي هو أولى بأن يسمى دين الراهب بولس- فإن (سفر بدء التكوين) يحتوي على تفصيل للعالم الطبيعي ، وإذ آمن النصارى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه ، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم في هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس ، لأن منطقه يعمل عمل السحر".

"ولما بدأ الغرب في دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط في أيدي رجال الكنيسة ، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض ، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم ، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم".

"واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع ، فأدخلت علوم الطبيعة في برنامج مدارسها وكلياتها ، وأصبحت جامعاتها التي لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين ، مركزاً للعلوم الطبيعية والعلوم لحديثة ، ولم تهجر مع هذا فلسفتها ، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة ، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة في العلوم الحديثة ، وكانوا يقدرون على أن يباحثوا الناشئة في كل موضوع".

"وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل في منطقتهم ، وإذ كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت في دور الانحطاط ، وكانت تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس ، ويبنوا علمهم على لاستدلال ، فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي ، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي".

الانحطاط الفكري والعلمي العام:

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي ، وشبه شلل فكري ، قد أخذه الإعياء والفتور ، واستولى عليه النعاس . ولعل القرن التاسع- إذا لم نقل القرن الثامن- آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم ، والأدب والشعر والحكمة ، والقرن العاشر أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة ، وترى هذا الخمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم ، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري ، أو النابغة أو المحقق على الأقل ، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر ، أو زاد في العلم زيادة حسنة إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي ، كالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٢٤هـ) صاحب الرسالة الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية ، والشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي (م١١٧٦هـ) صاحب حجة الله البالغة وإزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف ، وابنه الشيخ رفيع الدين (م١٢٣٣هـ) صاحب تكميل الأذهان وأسرار المحبة ، والشيخ إسماعيل بن عبدالغني بن ولي الله الدهلوي (م١٢٤٦هـ) صاحب منصب الإمامة والعبقات والصراط المستقيم(١٩٧) .

ولا نقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن أو إنشاء مترسلاً ينشرح له الصدر ، ترى أدباً فاتراً بارداً قد أفسده التأنق في الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل في الألفاظ والمعاني وكثرة التملق في المدح والغزل بالمذكر في الشعر ، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم . كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين وغصت بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبئ عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه

معاصرو العثمانيين في الشرق :

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان في الشرق ، إحداهما الدولة المغولية التي أسسها بابر التيموري (سنة ٩٣٣هـ ١٥٤٦م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة ، وكان أعظمهم أورنك زيب ، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم مملكة وأعظمهم فتوحاً وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة ، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين وتوفي (سنة ١١١٨هـ) أي في فجر القرن الثامن عشر المسيحي ، وهو عصر مهم جداً في تاريخ أوربا ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على شيء من الاتصال بما كان يجري في أوربا وما تتمخض به من حودث جسام ، وما يفور في صدره من عوامل الرقي والنهضة ، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوربا وأطبائها أو سفراء دولها- على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية- نظر الاستخفاف والاحتقار .

وكانت تصاقب دولتهم في أفغانستان الدولة الصفوية، وكانت راقية متحضرة ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية وبالهجومعلى الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة أخرى.

وانحصر هاتان الدولتان في قطرهما وكانت بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب ، وفي البلاد الإسلامية فضلاً عن البلاد الأجنبية ، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال ، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصى بها الآباء والأبناء ، وكذلك دراسة أحوال أوربا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان في ذلك العصر.

نهضة أوربا الجاهلية وسيرها الحثيث في علوم الطبيعة والصناعات :

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحي من أهم أدوار التاريخ الإنساني الذي له ما بعده ، قد استيقظت فيه أوربا من هجعتها الطويلة ، وهبت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها بكل جناح ، تسخر قوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون ، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحاً جديدة في كل علم وفن وفي كل ناحية من نواحي الحياة ونبغ في هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون في كل علم وعبقرية أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (kepler) ونيوتن(Newton) ، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثاً واكتشفواعوالم في العلم ، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلمبس (Columbus) وفاسكودي غاما (Vasco Dagama) ومجلن (Maglin) . كان تاريخ الأمم في هذا الدور في صياغة وسبك ، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها في أفول وبعضها في طلوع ، يصير الآفل منها طالعاً والطالع آفلاً ، وكانت ساعة في ذلك الزمان تساوي يوماً بل أياماً ، ويوم يساوي عاماً بل أعواماً ، فمن ضيع ساعة فقد ضيع زمناً.

تخلف المسلمين في مرافق الحياة :

ولكن المسلمين لم يضيعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً انتهزت فيها الشعوب الأوربية كل دقيقة وثانية ، وسارت سيراً حثيثاً في كل ميدان من مادين الحياة

وقطعت في أعوام مسافة قرون . ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحي ، ولم تدخل المطابع في العاصمة والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربي . وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالوناً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء . قد سبقتها دول أوربا الصغيرة في الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام ، وحتى سبقتها مصر في اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفي استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر .

تخلفهم في صناعة الحرب :

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً ، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التي كان التركي فى الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها ، قد أقرّ بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م) وظهر سبقها في ميدان القتال أيضاً فانتبهت الدولة العثمانية بعض الانتباه ، وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر ، وعُني السلطان سليم الثالث في فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح ، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط- خلافاً لسابقيه- وأنشأ مدارس جديدة وكان يُعلم بنفسه في مدرسة الهندسة ، وألف جيشاً على الطراز الحديث ، وأدخل تعديلات وتحسينات في النظام السياسي ، وقد بلغ الشعب حداً كبيراً من الجمود والمحافظة على القديم في كل شيء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله ، وخلفه محمود الثاني الذي حكم من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨٣٩ م ، ومن بعده عبد المجيد الأول (١٨٣٩م- ١٨٥١ م) فخلفا سليماً الثالث في مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدم .قارن هذا الشوط الذي قطعته تركيا الإسلامية في ميدان الرقي والتقدم ، بالأشواط التي قطعتها أوربا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد

الفرق هائلاً ، فلم يكن جريمها في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفي إغفاءه[١] .

مادة غربية: ثم يتساءل المؤلف بكتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ويجيب بأنه خسر حينما تحولت قيادته من الأمم الإسلامية إلي الأمم الأوربية ؛ لأن الحضارة الأوربية هي بنت الحضارة اليونانية والرومانية. واليونان يمتازون بالإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس، قلة الدين والخشوع، شدة التمسك بالحياة ومتاعها، النزعة الوطنية. فيمكن تلخيص الحضارة اليونانية في كلمة واحدة هي "المادية".

أما الحضارة الرومانية فيرى المؤلف انها تميزت بالاستخفاف بالدين، وحب السيطرة والاستعمار للشعوب الأخرى وتسخيرها لخدمة شعب روما فقط. وحتى حينما تخلت روما عن ديانتها الوثنية واعتنقت النصرانية، لم يستطع الدين الجديد أن يغير من سيرة الروم المنحطة وان يبعث فيهم حياة دينية نقية طاهرة وذلك بسبب ما أصاب المسيحية من تشويه وتحريف وتخليط بالوثنية. واستمر المجتمع يعاني قرونا من قسوة الرهبان وفساد البابوات الذين انحطت أخلاقهم واستحوذ عليهم الجشع وحب المال، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف، ويؤجرون أرض الجنة بالصكوك، لكن كان من أعظم أخطائهم أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية، وحينما خالف علماء النهضة هذه المعلومات ثارت الكنيسة وحاربت من يناقض هذه الأفكار، وحدث الصراع المشئوم بين العلم والدين، وقرر الثائرون علي الكنيسة أن العلم والدين ضدان لا يجتمعان دون أن ينتبهوا إلي أن هناك فارق بين الدين ورجاله المحتكرون لزعامته.

وقع المحظور إذن وانصرف الغرب إلي المادية بكل معانيها، وأصبحت الحياة في أوروبا في القرنين ١٩ و ٢٠ نسخة صادقة من الحياة في يونان وروما الوثنيتين، وصارت ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية، و"كنائسها" هي المصانع الضخمة ودور

---

[١] ماذا خسر للندوي، ص : ١٥٦-١٦٣

السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء البنوك والمهندسون والممثلات وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون.

ونتيجة عشق القوة صارت النتيجة ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح مستعدة لإبادة بعضها إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها، وظهر طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية، والفارق بين الخير والشر عنده هو النجاح المادي لا غير. وإذا كانت الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة ، فإنه ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه.لما قام مارتن لوثر بحركته الإصلاحية ضد الكنسية اللاتينية رأى أن يستعين بأبناء جنسه من الألمان ونجح في ذلك، فانفرط عقد أوروبا بعدما كان يجمعها الدين المسيحي، وقويت العصبية القومية والوطنية ، وكان نتيجة انتعاش النعرة القومية أن أصبحت أوروبا ترى نفسها تمتاز عن باقي شعوب العالم في الثقافة والحضارة والعلم والأدب. وأصبحت ترفض كل ما هو أجنبي حتى أن بعض الشعوب الأوروبية صارت تنظر إلى الدين المسيحي وإلى المسيح كطارئ ونزيل. كما صارت أوروبا لا تعترف بوجود الإنسان إلا في أراضيها.

تسبب التعصب للقومية في نشوب الحروب؛ فالدول الكبرى تري من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض وتكون لها مستعمرات وممتلكات في قارات مختلفة . وقد يجادل البعض ويقول أن أوروبا قدمت العديد من المخترعات كالسيارة الطائرة والسفن العملاقة والقطار وغيرها الكثير لكن ينبغي ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها بل هي وسائط ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر، والنفع والضر، بمقياس هذه الغاية.

وعلى سبيل المثال فإن الكبريت قد تطبخ به طعاما أو تحرق به بيتا ، والذي يُعلم الإنسان كيف يستعمل القوة وفيما يضعها هو الدين، لكن الأوروبيين قد فقدوا تعادل القوة بين العلم والدين منذ قرون حتى أصبحوا كما قال أحد العلماء الإنجليز " إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش" .

وإلي جانب الخسائر المادية للعالم بعد انتقال القيادة لأوروبا هناك أيضا الخسائر المعنوية مثل بطلان الحاسة الدينية، والانشغال بالحياة الحاضرة بكل ماديتها، وخفوت العاطفة الدينية، وأن وصار الكل مجرد مستهلك لمنتجات الغرب الكمالية، ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المال في عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه في الزمن السابق.

بعث الإسلام

يرى المؤلف أن العالم بعد أن استولت عليه المادية الأوروبية بحاجة لبعث روحي ينهض به الإسلام والمدينون به ، وسيكون ذلك عبر إعلاء شأن القرآن وسيرة نبيه الكريم من جهة ومن جهة أخرى بالاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وحتى في فنون الحرب ، بحيث يستطيع العالم الإسلامي الاستغناء عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة ، مضيفا أنه ما دام العالم الإسلامي خاضعاً للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة، يمتص الغرب دمه، وتغزوه بضائعه أسواقه وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء، وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال، ويستعير منه الرجال ليديروا حكومته، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه، ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع، وينظر إليه كأستاذ ومرب لا يبرم أمراً إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه ، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه[1].

التنبيه لأزمة العصر:

يقول الندوي: "إني لا أتحدث عن أزمة الأفراد، ولكن الأزمة الحقيقية هي عدم وجود القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمة، فأصبحت الشعوب والأمم قطعانا من الغنم لا راعي لها".

الإصلاح الفردي لا يغني من فساد المجتمع:

---

[1] ماذا خسر للندوي ، ص: ٢٥٥-٢٧٠

المجتمع لا يتصور له الصلاح إلا بصلاح جميع أفراده وعناصره، ولكنه لم يقصر دعوته على إصلاح الفرد وإنما أن المسلمين يحتاجون إلى الإصلاح الجماعي، لأن الأمة مبعوثة إلى الخلق كله، ومسئولياتها أكبر من مسئوليات غيرها.

إرساء قواعد متينة للمجتمع الإيماني:

الاجتماع الإنساني ضروري عند ابن خلدون[١]، ولذلك رسم الرسول صلى الله عليه وسلم خريطة للمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، الذي كان من خصائصه التجاوز عن كبر الأنانية وحب الذاتية إلى إيثار الغيرية، وإنكار الذات، والندوي يحن إلى مثل هذا المجتمع المثالي الذي يكون نموذجا للتعاليم الإسلام في العقائد والأخلاق والمعاملات، ودعائم هذا المجتمع عند الأستاذ أنور الجندي هى وحدة الفكر والارتباط يجمع عناصر النظم، والإقرار بالرغبات الطبيعية، وبالبعث والجزاء[٢].

آلية الفساد الاجتماعي وعوامل الانحطاط:

ميزة الندوي معالجة القضايا بمنظور قرآني، فالقرآن يرجع بنا إلى الماضي لنرجع إلى الحاضر والمستقبل، وترتبط فلسفته بالفلسفة القرآنية، حيث إن القرآن يعرض لنا قصصا اجتماعية وسياسية وتاريخية، ليظهر لنا أن عوامل الفساد والانهيار الاجتماعي والخلقي توجد في كل عصر ومصر، وهذه العوامل بعضها داخلية وبعضها خارجية ظاهرة.

العوامل الداخلية للفساد:

يعني أن هذه عوامل لها دخل كبير في انحراف الإنسان والانحلال الاجتماعي:

أ- الشهوانية.

---

[١] مقدمة ابن خلدون، ص:٤٦، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٦م.

[٢] عالمية الإسلام، لأنور الجندي، ص:٩٠، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.

ب- الأنانية.

ت- عبادة النفس.

ث- حب الذات.

ج- قصور النظر.

ح- الانصراف إلى الدنيا.

خ- الخضوع التام للمادة وقوتها.

د- الخضوع لعوامل الشذوذ والانحراف.

العوامل الخارجية الظاهرة لفساد المجتمع:

هذه العوامل كلها تخضع لعملية جماعية كبيرة واسعة النطاق، منها: فساد في الأخلاق، وسوء التعليم والتربية، وانحراف القوانين والنظم، كل هذه أسباب مجتمعة تحتاج إلى معالجة جماعية بطريق جماعي، ثم أسند نظريته بالواقعية المشهورة أو الملموسة، كي لا تكون تحت حطام النظريات الجوفاء البالية، فقال الإمام: الإنسان يعيش في الواقع، ولا يعيش في الأحلام والأماني، كما لا يعيش في الفلسفات والتصورات الجامحة، الإنسان يتنفس الهواء، فإن كان الهواء فاسدا، تنفس الفاسد، وإن كان الهواء عفنا تنفس العفونة، وإن كان الهواء صحيحا تنفس صحيحا.

مخاوف الندوي وقلقه:

إن التاريخ شاهد أن الأمم أصابها الفساد الخلقي والاجتماعي، فليس غريبا إذا ما أصيبت هذه الأمة كذلك بمرض وسوء خلق، إنما الخوف والفزع الغريب هو فقدان الطبيب وغياب المرشد الذي يحفظ السفينة من مخاطر التيارات والزوابع.

أسباب انهيار المدينة البيزنطية الرومانية، والمدنية الإيرانية:

البذخ والترف، اللذين بلغا حدا لا يتصور، إذ كانت هاتان الحضارتان تعتقدان بعقيدة خلود المادة، وانتصارها دائما، والغلبة لها أبدا، وأنها لا تخضع لآية قوة من القوى العالمية، وكذلك (الآن) الشعوب الأوروبية لا تخضع لآية قوة مادية تماثلها، وأية قوة

تجري وراء هذه الشبهات ووراء هذه اللذات التي يعبدها الأوربيون ويسجد لها الغربيون سوف تلقى مصير ما سبقها من الحضارات البائدة، ويصرح الندوي بكل صراحة إيمانية: إن أكبر كبير يزور عاصمة أوربية أو أمريكية ويبذر فيها القناطير المقنطرة ويبنى فيها القصور الشامخة، ويسبح في عالم من الخيال، ويتقلب في أعطاف من النعيم ويعيد تاريخ ألف ليلة وليلة.

القضاء على الجاهلية وإحداث التقدم والرقي هذا المبدأ من المبادئ العامة التي تدور حول فلكه نشاطات الندوي وأعماله وأفكاره، منه يبدأ وإليه يرجع، وبه يكتب وعنه يتحدث.

وذلك لأن إحداث التقدم والرقي في الحياة والمجتمع فكريا وثقافيا، مشروط بالقضاء على الجاهلية، ومحو الأمية، وطمس معالم الخرافة والأساطير المزيفة، فإن دفع المضرة تقدم على جلب المنفعة.

هذا المبدأ بدأت به رسالة الإسلام تخطو إلى الإمام، ثم أقام عليها الصرح الإسلامي العظيم بكل فن، وعقل وقلب.

بدأ تاريخ الإسلام رحلته بكلمة (اقرأ) وهي كلمة نورانية، بدأت ظلمات الجاهلية بها تنقشع وتتفرق، وتتراجع عن المعركة الثقافية أمام تلك الكلمة ومهاجمتها، واضطرت إلى الفرار عن معترك الحياة، كانت تخيم عليها قرونا طوالا، باسم الخرافة والوثنية، فالندوي يدرك تماما مدى خطورة الجاهلية، وكيف يحدث التقدم والرقي في الفرد والمجتمع والدولة، فيوجه أنظار المسئولين إلى عدة نقاط لابد منها:

أ- إثارة الشعور الديني في نفوس الشعب والجماهير.

ب- إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام.

ت- قلب نظام التربية المستورد من الغرب رأسا على عقب، وصوغه صياغة إسلامية جديدة.

ث- العمل على التخطيط المدني المستقل، البعيد عن تقليد الغرب[1].

---

[1] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ط مؤسسة الرسالة، ص: ٢٤٠.

التقارب بين العقل والنقل:

هذه مسألة تعتبر مستعصية عند الذين همهم الدنيا وملذاتها، بينما هي سهلة بسيطة عند الجامعين بين النزعة الإيمانية الجياشة، وبين النزعة الجسمية المادية المتطورة. هذه النزعة القلبية عبر عنها الندوي بالربانية، ويعبر عنها الغزالي بالتصوف تارة وبالروح أخرى، وقد عرض الندوي لذلك في كتاباته عدة أمثلة[١].

الدفاع عن كيان الإسلام والحفاظ على ثغور دولته وذلك بطرق، منها:

١. كشف حقيقة الاستشراق، وعرض دوافعها الأساسية فمنها دافع سياسي وهو الاستعمار[٢]، وأهدافها التي عدها الندوي استعراض حضارة الشعوب المغزوة المفتوحة، وإبراز موطان الضعف والنقص في الدين والحضارة، وإنشاء الإعجاب بالغرب، وإثارة الشبهات حول مصادر الدين (القرآن والحديث)، وإهانة السلف.

٢. الرد على القاديانية وقضية ختم النبوة فإنها في مواجهة دين إزاء دين، وأمة إزاء أمة، وألف لذلك القادياني والقاديانية، والنبوة والأنبياء[٣].

٣. معالجة الارتداد الفكري جذريا: أخذ الندوي قضية الارتداد بكمها وكيفها، وحذر الأمة من مخاطرها، وقدم لها العلاج الشافي، وهذه الردة الفكرية أشنع ردة ظهرت في العام الإسلامي، وكتب مقالا حول عنوان: ردة ولا أبا بكر لها[٤].

٤. عرض أسباب ومصادر وعلاج العصبية: اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم العصبية شيئا منتنا وحث أصحابه على الابتعاد عنها لتلويثها المجتمع بالكفر والفوضى، وذكر الندوي مظاهر عدة للعصبية وهي:

١) تقديس الدم: وهذا يظهر في القومية اليهودية.

٢) تقديس اللون: وهذه العصبية نراها متأصلة في الغرب وأمريكة.

---

[١] يراجع لذلك صفحات مادا حسر، ورجال الفكر والدعوة.

[٢] في مسيره الحياة ٢/١٧٠.

[٣] الشيخ أبو الحسن كما عرفته للقرضاوي، ص:٨٦.

[٤] إلى الإسلام من جديد، ص:٢٠٥.

٣) تقديس الوطن: الوطن أغلى من كل شيئ، وتقدم له التضحيات، والإسلام يشجع على حب الوطن وقد اشتعلت لهذه الوطنية حروب شتى.

٤) تقديس القبيلة: القبيلة كانت هي الآمرة والناهية، وكان المبدأ "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، شارحا عند العرب، فكانوا يتناصرون في الحق والباطل وبسبب هذه العصبية القبلية هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء[١].

٥) تقديس اللغة: التناصر على أساس اللغة ولو على الباطل هي العصبية اللغوية، وبهذه العصبية صارت اللغة هي الآمرة التي تربط بين الفرد والفرد، واعتبر الندوي هذه العصبية من جملة الأخطار التي تهدد كيان الأمة والبلاد[٢].

٦) تقديس الحضارة: عظمة الحضارة تمثل عظمة الإنسان، وانطلاقا من هنا يعد بعض الناس أنفسهم أبناء حضارات قديمة عريقة فيتحملون مسئولية إحيائها ويتعصبون لها ويتخذونها نموذجا.

٧) تقديس الأزياء: فالأزياء مختصة بالشعوب، وكل شعب يعد زيه شعار الوطنية وحب الوطن، ولا يسمح للغير الاشتراك فيه.

٨) تقديس الطقوس والشعائر: تقديس الطقوس والشعائر والتقاليد كاد أن يكون عبادة، فلكل أمة طقوس وتقاليد ممتزجة بلحومها ودمائها، وجعلوا هذا التقديس أساسا للرقي، ويظنونها من ثمرات أجدادهم.

ومن آثار هذه العصبيات:

١. تمزق شمل الأمة:

العصبيات أضر بالإسلام كثيرا، ووسعت الشقة بين العرب والفرس، وبين الترك والعرب، وأنتجت عن تفرقها وتفرق قطرها إلى أقاليم، وعن القضاء على الخلافة

---

[١] ماذا خسر، ص:٩٠.

[٢] في مسيرة الحياة ٥٣/٢.

العثمانية، وينظر الندوي إلى هذه العصبيات نظرة ثاقبة، وتوصل إلى نتيجة فقال: والذي عرف طبيعة الإسلام، بل عرف طبيعة الأديان عرف أنها لا تسيغ هذه العصبيات، ومن درس التاريخ متجردا عن الميول والمذاهب السياسية عرف أنها لم تزل ولا تزال من أقوى عوامل الهدم والتخريب والإفساد والتفريق بين الإنسان والإنسان[١].

٢. حدوث الطبقات في المجتمع:

الإنسانية أو الأخوة الإيمانية هي أساس المجتمع الإسلامي، ولكنه حينما يصاب بداء العصبية فإنه تنشأ فيه ثغرات والطبقة الملعونة.

٣. فقدان العدل والمساواة:

تحطم أساس العدل والمساواة في المجتمعات نتيجة هذه العصبيات، فكل مجتمع ينظر إلى مجتمع آخر نظرة مقت وسوء، ولم يبق بين أفراده معيارية القسط.

٤. الابتعاد عن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم:

لنزول العصبيات والتطرف والأنانية ابتعد الناس عن تعاليمه النقية السمحة. يقول الندوي: إنها عصبيات، ونزعات جاهلية، ومبادئ جاهلية حاربها الرسول بكل قوة، وحاربها الإسلام بكل وضوح، ولا شك أنها في عمقها ورسوخها وقوتها وشمولها تنافس الأديان، وتستعبد الإنسان، وتناوئ رسالات الأنبياء[٢].

---

[١] إلى الإسلام من جديد، ص:٢٢٠-٢١٣.

[٢] إلى الإسلام من جديد، ص:٢١٢.

٥. موطن المؤامرات والدسائس:

عندما يتفرق شمل المجتمع وتنطفئ مشاعل الرسالة الإنسانية فإنه يصبح فريسة المؤامرات الخبيثة الخارجية. يقول الندوي في "ماذا خسر": بلغت المادية أوجها في عهد الاستيلاء الأوربي، وأصبحت فلسفة وفنا وحياة ودينا، أفسدت المدنية الغربية، والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق الإسلامي، وأذواقهم، وليس مظهر من مظاهر حياتنا ولا مركز من مراكز نشاطاتنا اليومية إلا والفضل فيه يرجع إلى أوربة، وسيطرتها السياسية والاقتصادية المباشرة أو غير المباشرة، وإلى غزوها التجاري العالمي، وبذلك أصبحت الحياة في حواضر الشرق بل وفي بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة، لها ضراؤها وليس لها سراؤها ولها من الغرم مادون الغنم[١].

٦. مستقبل الأمة في خطر داهم:

لما آل المجتمع المعاصر إلى ركن العصبية القومية وثوراتها، بسبب ما يوجد في العالم الإسلامي اليوم من مبدأ وعقيدة، وإيثار الدنيا على الآخرة، بعد ما غزته أوربة سياسيا وثقافيا، يخضع لهذه العصبيات الدنيوية والجنسية والوطنية، وتمجد هذه العصبية ويبالغ في تقديسها والدفاع عنها، والقتال تحت رايتها وتوزيع المجتمع الإنساني على أساسها، حتى تصبح ديانة وعقيدة تسيطر على العقول والنفوس والأرواح والآداب، وأصبحت العصبية بعد ذلك قضية علمية وحقيقة مقررة تثير في الشعوب الحماسة القومية، تندفع بها اندفاعا غريبا إلى إحياء هذه العصبيات التي أماتها الإسلام، والعمل على التغني بها، وإحياء شعائرها، والافتخار بعهدها الذي تقدم على الإسلام أمثال "الترك" التي تفتخر بإحياء النزعة الطورانية، وإحياء جاهليتها القديمة، لتعبد "الذئب الأبيض" الذي كانوا يعبدونه، و "الفرس" كإحياء الكيومرتية، والزرشتية، والمانوية، والمزدكية[٢].

---

[١] مقتبسات من ماذا خسر.

[٢] مقتبسات من ماذا خسر، ص:٢٨٠-٢٨٨.

وزد على ذلك ما يوجد في العالم الإسلامي من التهور، والإخلاد إلى الأرض، واتباع الهوى، والاستهانة بمحارم الله، وشيوع الخمر، والفسوق في الطبقات الراقية، وليست المسألة مسألة انحطاط في الأخلاق، وضعف في العبادات، وتقليد للأجانب، وإنما المسألة مسألة كفر وإيمان، وبقاء على الإسلام، وخلع له.

منافذ العصبيات:

حدد الندوي المنافذ التي تدخل منها العصبيات إلى المجتمع الإسلامي، وهي:

١. الانحلال الديني:

الإيمان الجازم بالله وبرسوله وازع ديني يصون صاحبه من التردي، ولكنه قد يطرأ عليه سحاب قائم وذلك لأسباب آتية:

أ- الثقافة اللادينية: الثقافة عامل مهم في بناء صرح المجتمع، ولكن العالم الإسلامي غزته أوربا بغزو ثقافي فمال إلى اللادينية وانحطت أخلاقه، ونسبت في عقله الشك والإلحاد[١].

ب- الأدب والفن: اتجاه الأديب تغير إثر غزو الغرب واتخذ الأدب الخط اللاديني وسبيل المنهج المادي الماجن، وهنا برزت دعوة الندوي أكثر واقعية تتركز على تأصيل الوعي والإدراك لتصدى هذه الظاهرة فلفت الأنظار إلى إنتاج الأدب الإسلامي[٢].

ت- السياسة الخاضعة: السياسة الغربية تمكنت من تكدير الصفو، وإثارة الرذائل والبيئة الجاهلية، فجاءت فلسفة الندوي تركز على إيجاد الوعي السياسي الصحيح فى الشعوب الإسلامية، وعلى إصلاح السياسة[٣].

---

[١] إلى الإسلام من جديد، ص:٢١٧-٢٢٠.

[٢] السابق، ص:٢١٨.

[٣] السابق، ص:٢١٩.

٢. المنفذ الثاني:

منافذ العصبية العاطفة الإنسانية وتحريكها يولد المقت والمخاوف، ويعمل العداء فيه عمل الوقود في النار، فالمجتمع العصبي مجتمع متكهرب، شديد الالتهاب، والمفكرون والفلاسفة يتعاطون العصبية، ويؤبدونها ويحاولون إرجاعها، ولكن مصلحة الأمة فوق كل مصلحة، ومصلحة الأمة هي الحاجة إلى دعوة قوية، وحجة مقنعة للردع عن العصبية، وتقديم حلها، وإدخال الطمأنينة في قلب الشعب. والحل الإسلامي للعصبية عند الندوي أن تحارب و تستأصل.

الحل الوحيد للأزمة العالمية عند الندوي:

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة . إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغني غناء ولا يغير من الموقف شيئاً ، فإن هذا التحول ليس إلا نقا المجداف من الموقف شيئاً ، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس ، فما دام المجداف واحداً فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد تتداول دفة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة .

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول القيادة من أوربا – بالمعنى الواسع الذي يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية – التي تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامي الذي يقوده سيدنا ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم . هذا هو التحول الذي يغير وجه التاريخ ويحول مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه .

إن حقاً على العالم الإسلامي أن يُمني نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه ، وإن حقاً على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازيمه لذلك ، وإن حقاً على كل

مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه ، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ، ويوم طهرت نواتها في جزيرة العرب[١].

[١] ماذا خسر العالم للندوي، ص : ٢٩٠-٣٠٠